مدخل إلى إسلامية المعرفة

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست

الفهرست
تمهيد
المصطلح والضرورات
الحلقات الاساسية للمعرفة وعلاقتها بالإسلامية
القرآن والعلم الحديث
التراث المعرفي الاسلامي
المعطيات الاسلامية الحديثة والمعاصرة
المحاولات المنظمة
خاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

تتحرك عملية اسلامية المعرفة على محورين اساسيين احدهما تنظيري والآخر تطبيقي . ويكاد يكون المحور الاول مدخلا ضروريا للمحور الثاني ، فهو يتولى التعريف بالمصطلح ويوضح ضروراته الملحة ويصنف الحلقات الاساسية للمعرفة ، ويؤشر على موقف القرآن والاصول الاسلامية عموما ، من العلم الحديث ، ويلقي الضوء على التراث المعرفي الاسلامي في اطاره التاريخي لتحديد معطياته الاسلامية الاصيلة ، كما يسعى بالمقابل لمتابعة عوامل الانفصال المحزنة بين التصور الاسلامي والنشاط المعرفي في اطار هذا التراث .. وامتدادا الى العصر الحديث حيث لعبت قوى الغزو الاستعماري ، بصيغتيه القديم والجديد ، دورا فاعلا في تعميق هذا الانفصال والوصول به الى الازدواجية التي تتحكم بمجرى النشاط المعرفي في عالم الاسلام عبر اللحظات الراهنة . هذا الى ان مهمة المحور التنظيري متابعة المعطيات الاسلامية الحديثة والمعاصرة ، وتصنيفها لكي تعين وترفد عملية الاسلمة ، والتأشير على الخطوات الاساسية التي تمت او يتحتم ان تتم بصدد العملية على مستوى النشر والتأليف او الندوات والمحاضرات والمؤتمرات او المؤسسة المتخصصة ، ولا سيما الجامعة التي تعد – ولا ريب – حجر الزاوية في العملية كلها . ويمكن كذلك ان يتولى المحور تقديم وتصنيف المقترحات الضرورية التي تعين على تنفيذ العملية وتحويلها الى امر واقع ذي فاعلية مؤكدة وقدرة – في الوقت نفسه – على الاستمرار والانتشار.

واذا كان هذا المحور التنظيري ، قد يترجم بمطالبه كافة في مؤلف واحد ذي جزء او جزئين او ثلاثة ، فان المحور التطبيقي يختلف تماما على مستوى الكم . فهنا ستتم معالجة كل فرع من فروع المعرفة البشرية الانسانية والصرفة والتطبيقية ، لكي تصاغ توجهاتها الاساسية ومفرداتها وفق المنظور الاسلامي . وهنا كذلك لن يكون بمقدور مفكر واحد – او حتى مجموعة من المفكرين – ان تنجز عملا واسعا متشعبا كهذا ، لأنه يقتضي عدداً كبيراً من المتخصصين في كل فرع من فروع المعرفة آنفة الذكر .. فإن اسلمة التأريخ مثلا ، أو الادب ، او الاقتصاد ، تحتم تفرغ مجموعة متخصصين في كل فرع من هذه الفروع لكي يتمكنوا من تنفيذ العمل في ضوء ما يسمى بالتخصص الدقيق. وهذه مسألة معروفة ، فان المتخصص الدقيق بالتاريخ الاموي لن يكون قديرا تماماً على العمل في الساحة العباسية او الاندلسية. والمتخصص الدقيق – مثلا – في ادب صدر الاسلام لن يكون قادرا على العمل في مجال الادب الحديث ، تماما ،

كما ان المتخصص الدقيق في الكيمياء العضوية ليس من مهمته الالمام بدقائق وتفاصيل الكيمياء اللا عضوية .. وهكذا ..

ان العمل في كل حقل من حقول المعرفة هو بالدرجة الاولى ذو طبيعة تكاملية ، ولن تتم السيطرة عليه الا من خلال حشد من المتخصصين الذين يمتلكون ناصية تخصصهم الدقيق، فضلا عن رؤيتهم الاسلامية الاصيلة ، وخلفياتهم الثقافية الشاملة.

المصطلح والضرورات

تعنى < اسلامية المعرفة > او < اسلمة المعرفة > ممارسة النشاط المعرفي كشفاً وتجميعا وتركيبا وتوصيلا ونشرا من زاوية التصور الاسلامي للكون والحياة والانسان.

وهي بهذه الصيغة تغدو منطقية تماما وفي اطارها الملائم بحيث يبدو ما عداها خروجا على القاعدة وتنافرا مع طبائع الاشياء خاصة اذا ما عرفنا ان مفردة (اسلامية) قد تمتد خارج دائرة الدين الاسلامي لكي تحتضن وتمس كل ما يتحرك في دائرة الايمان الاصيل بوحدانية الله.

ممارسة منطقية .. اذ تذكرنا ان النشاط المعرفي هو اضافة او تسليط العقل البشري ، او بعبارة أدق ، القدرات العقلية البشرية على الظواهر المادية والحيوية والروحية والانسانية في مدى الكون والعالم والحياة.

فاذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الانسان ونفخ فيه من روحه ومنحه قدراته العقلية والحسية والجسدية .. الخ .. وهو الذي خلق الكون والحياة وبث فيهما الظواهر والموجودات والاشياء ، ومنحهما السنن والنواميس التي تنظم امورهما ، واودعهما القوى والطاقات .. وهو الذي سخر هذا للإنسان كله ، المستخلف في الارض ، وهو الذي طالبه في كتبه المنزلة ان يتحرك لمتابعة الظواهر والكشف عن السنن ، والافادة من الطاقات لإعمار حياته في هذا العالم وجعلها تليق بمستواه كانسان حملته الارادة الالهية في البر والبحر وفضلته على سائر الخلق ومنحته السيادة على العالمين.

اذا تذكرنا ان الله جل في علاه ، وهو مبدع مختبر الكون الكبير ، والمهيمن على اسراره ونواميسه وطاقاته الهائلة .. وانه هو – ﷻ – فالق الحب والنوى ، ومسيرا الرياح بشرا بين يدي رحمته .. وحامل الجواري في البحر .. ومولج الليل في النهار .. ومكور الارض .. ومشعل النار في الشمس .. ومفجر النور في القمر .. وانه ﷻ باعث الحياة في الطين اللازب .. وانه قيوم السماوات والارض ، لا تعزب عنه مثقال ذرة هنا او هناك .. وانه ما من ورقة ولا رطب ولا يابس ، ولا حبة من خردل في صخرة او في ظلمات الارض الا وهو يعلمها سبحانه.

اذا تذكرنا هذا كله ، وتذكرنا معه لحظة انطلاق آدم عليه السلام الى العالم وقد علم الاسماء كلها لكي يمارس مهمته فيها .. عرفنا ان تعامل الانسان مع الوجود من حوله كشفا وتنقيبا وتعلما وتعليما ونشرا وتوصيلا ... اي نشاطه المعرفي عموما .. لابد ان يتشكل في اطاره الايماني الصحيح لكي ينسجم مع الناموس .

ان قطبي التعامل : الانسان والعالم ، هما من صنع الله الذي اتقن كل شيء .. فمن الطبيعي ان تتشكل مفردات هذا التعامل من منظور الايمان بالله خالق الكون والحياة

والانسان .. وكان من الطبيعي ان تسلم المعرفة بهذه الحقيقة الكبرى ، اي ان تكون (اسلامية) بهذا المعنى الواسع الذي يضع الامر في نصابه من نطاق الملكوت الالهي وسننه ونواميسه.

ان هذه " الاسلامية " لا تنسحب فقط على ما يسمى العلوم الصرفة (المحضة) والتطبيقية في التعامل مع الوجود ، وانما تمتد بالضرورة الى ما يعرف بدائرة العلوم الانسانية، بل انها في هذه اشد ضرورة لأنها المعنية بترتيب وضع الانسان في العالم وتنظيم حياته بما يجعله قديرا على تحقيق مهمته في هذا العالم.

ومن ثم تغدو هذه العلوم التي تعالج الانسان فردا ، كعلم النفس مثلا، وتلك التي تعالجه جماعة كعلم التاريخ والاجتماع ، او تلك التي تستهدف دراسة وتنظيم مؤسساته العامة كعلوم الادارة ، او ضبط نشاطه المعاشي كعلوم الاقتصاد ، او تنسيق علاقاته العامة كالعلوم السياسية، او حماية حقوقه وتنظيم واجباته كالقوانين والتشريعات ، او متابعة رؤيته الجمالية ونشاطه التعبيري كالآداب والفنون.

تغدو هذه العلوم جميعا في حاجة الى ان تتشكل هي الاخرى في دائرة " الاسلامية " وان تستمد مناهجها وطرائق عملها بل ان تبنى مفرداتها من نسيج المعطيات الدينية التي حددها كتاب الله وسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ونماها النشاط الفقهي بمرور الزمن عن طريق استجابته للتحديات ومتابعته للمتغيرات الزمنية والمكانية ، وذلك من اجل ان تصبح الحياة البشرية ، بكافة انشطتها وصيغها ، اسلامية التوجه ، اسلامية الممارسة ، اسلامية المفردات ، ويتم ذلك بتجاوز كل ما من شأنه ان يقود الى الثنائية او الازدواج بين التوجه الالهي المطلق وبين اجتهادات الانسان النسبية المتضاربة.

ان " اسلامية المعرفة " ها هنا لا تعني فقط الدعوة لتحقيق الوفاق بين معطيات العلوم الانسانية وبين المطالب الدينية على مستوى التطبيق ، وانما تعني قبل هذا وبعده ، احتواء كافة الانشطة المعرفية الانسانية على المستويين النظري والتطبيقي معا من اجل جعلها تتحقق في دائرة القناعات الايمانية وتتشكل وفق مطالبها وتصوراتها الشاملة اسوة بالعلوم الاخرى.

تعد " أسلمة المعرفة " ضرورة على اكثر من مستوى ، ويمكن حصر هذه المستويات بالمجالات الرئيسية الاربعة التالية :

أ) الضرورة العقيدية :

ان هذا الدين يحمل منذ البدء وكما هو بين من اسمه ، توجهه الواضح الحاسم : الاسلام لله رب العالمين .. لإرادته .. لكلماته .. لأوامره .. لنواهيه .. لسننه ونواميسه في الكون والعالم والحياة . وهو يضع الانسان ، والجماعة المؤمنة ، بناء على ذلك ، في حالة وفاق مع السنن والنواميس ، لا ارتطام بها او تضاد معها. وهذا يقتضي بطبيعة الحال معرفة بهذه السنن والنواميس .. بأسرارها وتكوينها ودقائقها ، للتحقق بالوفاق المرتجى الذي يتأنى عنه مزيد من التقدم والانجاز والسعادة والرفاهية بالتالي ، الامر الذي يحرر الانسان المؤمن من الضرورات ويمكنه اكثر فاكثر من تنفيذ مطالب الايمان العليا.

ان معرفة كهذه أريد لها ان تنفذ احدى المقومات الاساسية للمنظور الاسلامي ، لابد ان تتشكل في دائرة الايمان ، او ان يعاد تركيبها من منظور ايماني.

وسواء كان النشاط المعرفي انسانيا ، ام علميا صرفا ، ام تطبيقيا فليس ثمة ما يعيق من تنفيذه في دائرة الايمان ، واذا ما حدث ان ندت بعض المعطيات العلمية في هذه المجالات عن المسلمات الايمانية فما ذلك الا لوجود خلل ما في مصداقية هذه المعطيات او في مناهجها او في طرائق التعامل معها.

ان الدين الذي يبدأ كتابه الكريم بكلمة " أقرأ " لا يمكن ان يكون الا دينا معرفيا ، اي ان يفتح صدره للنشاط المعرفي على مستوى الكون والعالم والوجود لتأكيد القناعات الايمانية من جهة ولتعميق الوفاق بين الانسان المؤمن وبين العالم الذي يتحرك فيه.

وعلى خلاف سائر المذاهب والاديان فان الاسلام قبل التحدي منذ اللحظة الاولى ، بل إنه دعا اليه ، اي انه جعل محاولة اكتشاف سر العالم على المستويين المعنوي والمادي عملا من اعمال التقوى بل مطلبا رئيسيا من مطالبها.

ويمكن كذلك ان نلحظ تبادلا مزدوجا من التأثر والتأثير بين العقيدة والمعرفة من المنظور الاسلامي ، الامر الذي يؤدي الى ضرورة ان تتشكل المعرفة في اطار اسلامي. فالعقيدة كما مر بنا قبل لحظات تطالب بالنشاط المعرفي بل تأمر به ، وهذا النشاط المحفز بدوافع الايمان يقود بدوره الى تعزيز الرؤية الاسلامية بإضاءتها بالمزيد من القيم المعرفية ، وبمنحها المزيد من وسائل القوة والتحقق والانتشار والتماس مع العالم .. اي ان " اسلمة المعرفة " ضرورة عقيدية باتجاهين اساسيين ، فأما اولهما ، فهو اعانة المسلمين في العالم على مزيد من فهم وادراك نسيج دينهم الذي ينتمون اليه ، فنزداد قناعاتهم بأهمية هذا الدين في قيادة الحياة البشرية في ضوء المعطيات المعرفية التي تتكشف بالضرورة عن هذا الكسب الكبير. واما ثانيهما فهو تمكين

المسلمين في العالم من التحقق بالقوة المادية وتطوير حياتهم المدنية بما يمنحهم مكانة مناسبة في هذا العالم ، ويمكنهم من مجابهة ضغوط وتحديات الغير.

وحيثما تلفتنا وجدنا " أسلمة المعرفة " تمثل ضرورة عقيدية ، وهذا الذي المحنا اليه لا يعدو من ان يكون مجرد تأشيرات على هذه الحقيقة التي يمكن أن يقال فيها الكثير.

ب) الضرورة الانسانية :

وهي تنبثق كما هو واضح عن سابقتها . فاذا كان هدف العقيدة هو تكوين الانسان المؤمن المتبصر المتوازن السعيد ، فان النشاط المعرفي المنضبط بالرؤية الايمانية يجيء اعانة على تحقيق هذا الهدف . ونحن نستطيع ان نتصور القيمة الحقيقية لنشاط كهذا بمجرد ان تتذكر ما الذي فعلته المعرفة اللا دينية بالإنسان والجماعات البشرية.

ليس هذا مجال الحديث عن هذه المسألة وانما التأشير عليها فحسب ، فان ما يعانيه الانسان في البيئات التي رفضت الايمان ، او عزلته عن مجرى الحياة الواقعية ، من تعاسة وازدواج وتمزق وشقاء نفسي وروحي وعاطفي واجتماعي ، رغم ارتفاعات منحنيات الانجاز المادي ، أمر ملحوظ ينطق به واقع الحال هناك ، وتؤكده شهادات المفكرين ، واعلامهم الذي يمكن للمرء ان يلتقي به صباح مساء في عصر التواصل السريع.

ثمة مسألة اخرى ترتبط بالضرورة الانسانية لأسلمة المعرفة تلك هي ان النشاط المعرفي المنشق عن مطالب الايمان اندفع باتجاه اغراءات القوة والتسلط ، ونداء الانانيات العرقية والدولية والمذهبية ، ومضى ابعد من هذا ، باتجاه كل ما هو لا اخلاقي في السلوك البشري ، لكي يحول المنجزات والكشوف المعرفية الى سلاح يشهر بوجه الانسان ، وليس لصالح الانسان.

ان انتاج القنابل الذرية والهيدروجينية والنيوترونية ، واستعمالها في اللحظات الصعبة – كما حدث في هيروشيما وناغازاكي – ليؤشر بشكل واضح على الكارثة التي يمكن ان يساق اليها الانسان والبشرية اذا اتيح للمعرفة ان تظل على جموحها ، على خروجها عن مطالب الايمان العليا ، على عدم انضباطها بالقيم والموازين الالهية العادلة التي تجعل القوة والحكمة – دوما – في كفتي ميزان.

هذا الى ان المعرفة المؤمنة ، على خلاف المعرفة اللا دينية او الملحدة ، تسعى لان تمنح اكلها للناس كافة ، لا تحكمها انانية الحفاظ على السر ، وحجب الاكتشاف – بدافع براغماتي – عن الآخرين.

ان تجربتنا التاريخية علمتنا كيف تكون المعرفة المؤمنة سخية العطاء إنسانية المنحى، بمعنى انها تسعى لان تخدم البشرية جمعاء بغض النظر عن حواجز اللون والعرق والجغرافيا بل وحتى المذهب والدين.

إن الانسان ، مطلق انسان ، هو المستفيد في نهاية الامر من المعرفة المؤمنة ، وبالمقابل فان عشرات من الامم والجماعات والشعوب لم تحرم بالمعرفة اللا دينية من حقها المشروع في الافادة من ثمار هذه المعرفة ، فحسب ، وانما وجهت نتائجها وكشوفها الى اسلحة فتاكة لتدمير هذه الجماعات او استعبادها والهيمنة على مقدراتها.

ج) الضرورة الحضارية :

ان تقليد العلم الغربي او استيراده لا ينشئ حضارة ، او يعيد بناءها بعد تفككها ودمارها .. ان هذا " يصنع " في اقصى حالات نجاحه عالما ثالثا يدور في فلك حضارة الغير .. قد يتقدم في سلم المدنية (المادية) لكنه على المستوى الحضاري لا يملك خرائطه الثابتة المتميزة على سطح الكرة الارضية.

ان اليابان والصين مثلا ، إذ قدرتا على تجاوز المرور في هذه القناة الضيقة ، خرجتا من معركة التحدي وهما اكثر أصالة وتحضرا .. وهما تملكان في عالمنا المعاصر ثقلهما وحضورهما وتميزهما الملحوظ.

ماذا حدث بالنسبة لتركيا الكمالية سوى انها اصبحت في منظور الغربيين انفسهم مثلا يضرب للتندر على اولئك الذين يحاولون اللحاق بالغير والتفوق عليه ، وهم يتعاطون الكدية منه، ويقلدونه صباح مساء متنازلين عن كل ما له مساس بشخصيتهم واصولهم الحضارية ؟؟

إن اسلمة المعرفة من خلال هذا التحليل الموجز ، تبدو ضرورة بالغة لأنها ستتجاوز بمسلمي اليوم والغد احدى اثنتين قد تأتيان عليهم كأمة متميزة : الذوبان في الغير ، او العزلة الكلية عن الاستفادة من تقدمه.

ها هنا ، وعندما يتاح لهذه الامة ان تمارس نشاطها المعرفي في دائرة الايمان فانها ستعرف كيف تنتزع النار المقدسة من الآخرين ولكن لا لكي تحرق بها العالم او تدمر بها نفسها بأغراء التكاثر والتكديس ولكن لكي تبني ذاتها بمفردات المعرفة المنضبطة بمطالب الايمان ، بل انها قد تمضي لكي تستعيد دورها المنسي : اعادة بناء العالم بالمعرفة المتبصرة بالايمان ، المستمدة من هدى الله سبحانه ..

د) الضرورة العلمية :

ان النشاط العلمي ينبثق في معظم الاحيان عن رغبة في الكشف والتفوق. فاذا وسعنا دائرة التحليل صوب الجماعات ، فان النشاط العلمي يتخذ غالبا وسيلة للتحقق بالنمو الاقتصادي والعمراني والاستراتيجي وبالقوة المسلحة.

وهذه كلها دوافع قد تكون مبررة خاصة وانها قادت بالفعل الى المضي بالحركة العلمية صوب آفاق لم تخطر ببال الانسان ، وتمخضت عن نمو اقتصادي وعمراني مذهل وعن تفوق للقوة يكاد يكون من قبيل السحر والخوارق.

لكن ماذا لو اضفنا الى هذا كله ، او قبل هذا كله ، الدافع الايماني باعتباره الدافع الاكثر الحاحا وإلزاما للنشاط العلمي الذي يجعل من سعي الانسان في العالم ضرورة او فريضة يتقرب بها الى الله ؟ ويتحتم على اولئك الذي يملكون قدرة ما في نطاقها ان يواصلوا السعي لمزيد من الاكتشاف ، وبالتالي لمزيد من التحقق ، بالنمو والقوة اللتين يأمر هذا الدين للأخذ بأسبابهما كشرط حاسم للتحول بالايمان من مواقع العزلة والانفصال الى مراكز التي الاندماج والاندغام في هذا العالم من اجل ان تكون كلمته فيه هي الكلمة التي لا راد لها ؟

أن " اسلمة المعرفة " تعني ، وفق هذا التحليل ، منح النشاط العلمي ، على مستويي الكم والنوع ، وقودا جديدا يدفعه للمزيد من الاشتعال والتألق اللذين يكشفان عن الحقائق .. يضيئان السنن والنواميس .. يشيران إلى مصادر القوة والطاقات المذخورة التي طالما أشار اليها كتاب الله ودعا المسلمين إلى تمزيق الستار الذي يحجبها ، واخراجها للناس كي تمنحهم الخير الوفير.

الحلقات الاساسية للمعرفة وعلاقتها بالإسلامية

قد يبدو للوهلة الاولى ان العلوم ليست سواء في طبيعة علاقتها بالإسلامية اي في قدرتها على تقبل اعادة صياغتها من منظور اسلامي ، واذا كانت العلوم الانسانية او بعضها – في الاقل – قابلة للاسلمة بحكم توجهها الانساني والتقائها في الهدف النهائي بالمهمة الدينية من حيث انها – في الاسلام – محاولة لتنظيم الحياة ، فان العلوم المحضة والتطبيقية قد لا تكون ذات مساس بالمهمة من قريب او بعيد .. وحتى اذا كانت هناك بعض الموضوعات العلمية الصرفة ذات علاقة ما ، فان اغلب الموضوعات الاخرى تفتقد كل ما من شأنه ان يعقد صلة ما بينها وبين الاسلامية.

ويستطيع المرء ان يحكم على خطأ تصنيف كهذا اذا تذكر ان الأسلمة لا تعني – ابتداءً – تحكما بالمعادلة الرياضية او الكيميائية ولا تدخلا لصياغة القانون الفيزياوي او الحياتي .. وتعديلا لنظرية في الذرة ، او اقتحاما فجا للمختبر.

أبدا ، فان هذه الانشطة العلمية انما هي مسائل حيادية سواء عملت في ظلال توجيه مادي ، او علماني او مؤمن .. انما مجموعة التقاليد العلمية المرتبطة بهذه الانشطة ، وطبيعة ارتباطها ، بالتوجه العام للنشاط العلمي والثقافي ، وتوظيف النتائج النظرية والتطبيقية المترتبة عليها ، هي الامور الاساسية المعنية بأسلمة علوم ومعارف كهذه .. ومن ثم يبدو واضحا انه لا الكيمياء ولا الفيزياء ولا الرياضيات او علم طبقات الارض .. الخ . يمكن ان تند عن محاولة الاسلمة.

ويكفي ان نتذكر ما كان يفعله اجدادنا من قدامى العرب وهم يصنفون مؤلفاتهم في هذه الفروع .. كيف انهم كانوا يبدأون باسم الله وعلى بركته .. وينتهون بالتوجه بأعمالهم الى الله .. وكيف انهم كانوا يعودون ، للتذكير ، مرة بعد مرة ، بان ما يعملونه ، والحقائق التي يتوصلون اليها ، والمسلمات التي يصوغونها انما هي بفضل من الله ، وقطرات من بحر علمه اللدني الذي لا تنفد كلماته.

لكن الامر – بالتأكيد – لا يتوقف عند هذا الاطار الايماني في المعطيات العلمية ، فها هنا قد يقول قائل بان المسألة في عمومها لا تعدو ان تكون من قبيل المسائل الاجرائية التي لا تمس جوهر الموضوع. ولكننا نستطيع ان نمضي قدما فنتذكر كيف ان الرياضيات والطبيعيات والجيولوجيا .. الخ. يمكن ان توظف ، ولقد وظفت فعلا كأسلحة مضادة للإيمان (الامر الذي شهدته ولا تزال الساحة الاوربية بجناحيها الغربي والشيوعي لأسباب تاريخية وأيديولوجية ليس هذا أوان التأشير عليها او الوقوف عندها) ويمكن ان توظف كذلك لتعزيز مواقع الايمان في العالم ،

كما نلحظ مثلا في التقاليد العلمية لحضارتنا الاسلامية ايام تألقها وعطائها .. اذا تذكرنا هذا كله عرفنا – يقينا – ان المسألة لا تقف عند الامور الاجرائية وانما تمضي قدما ، بأكثر من صيغة في التعامل ، لجعل النشاط العلمي الصرف يتحرك في دائرة الكفر او الايمان .. اي يخضع لمطالب الاسلمة بعبارة اخرى.

وما يقال عن العلوم الصرفة يمكن ان يقال عن العلوم التطبيقية (التكنولوجيا) فان الامر هنا ايضا لا يقف عند الحدود الاجرائية والشكلية للنشاط التطبيقي وانما يمضي باتجاه طرائق التوظيف والتعامل .. وقد تكون المسألة اكثر وضوحا وتجسدا منها في دائرة العلوم الصرفة.

فالتلفزيون او السينما مثلا اداتان قد تحققان نتائج ذات اهمية بالغة لدائرة الكفر او الايمان ... هذه مسألة بديهية لأنها محسوسة منظورة . ونستطيع ان نتذكر – كذلك – كيف ان احدى معضلات الانشطة التنموية في عالم الاسلام في معظمها انصرفت الى نقل واقتباس تكنولوجيا الآخرين ، دونما تحوير او تعديل بما ينسجم والمطالب والضرورات ، بل والمفردات الاسلامية. ان مجرد الاقرار بوجود خطأ كهذا يعني – بالمقابل – ان بمقدور النشاط التنموي ان ينحو منحى آخر فيوظف المسألة توظيفا ايمانيا ، ويحاول ، جهده ، ان يجعل التكنولوجيا تعين على التحقق بمطالب الحياة الاسلامية لا ان تكون سلاحا مضادا يشهر بوجهها.

هذه مسألة قيل فيها الكثير ، وهي تحتمل المزيد من القول ولكن ليس على صفحات كهذه ، مهمتها فحسب التأشير على الخطوط العريضة للمطالب الاساسية للأسلمة.

فإذا ما عدنا الى دائرة العلوم الصرفة فان علينا – بالمقابل – ان نقر بنوع من التفاوت بين علم وعلم بصدد طبيعة الارتباط بعملية الأسلمة.

فان علوم الطبيعة والفلك والحياة قد لا تحتاج الى تأمل كبير لتبين مدى مقاربتها للعملية بحكم ارتباط نتائجها الاساسية بالمنظور الفكري للخلق والعالم والحياة والوجود ، وهي ذات المسائل التي يعنى بها الدين ويقدم بصددها شبكة معطياته الخصبة المتشعبة.

وإن علوما كالهندسة المدنية او الجبر او المثلثات او الرياضيات عموما ، وكذلك علوم الاحصاء والكيمياء ، وربما طبقات الارض (الجيولوجيا) قد لا ترتبط بالعملية ارتباطا مباشرا لأنها لا تتضمن خلفيات او ، ربما نتائج ذات مساس مباشر بالمنظور او التصور الفكري.

فها هنا نرجع الى ما سبق وان ذكرناه قبل لحظات من ان الاطارات الاجرائية لطرح هذه العلوم كشفا وصياغة وتوصيلا .. وتوظيف بعض النتائج ذات التأثيرات الفكرية .. الخ. قد تضع معارف كهذه في موقعها الايماني الصحيح المنسجم مع شبكة الأسلمة للمعارف جميعا.

ومهما يكن من امر فاننا بمجرد متابعة ما يريد القسم الثالث لمحاولة كهذه ، ان يقوله بصدد المنظور القرآني للعلم ، بحلقاته كافة ، سيتبين لنا انه ما من فرع من فروع هذا العلم ،

وربما موضوعة من موضوعاته ، الا وهي ترتبط – بشكل او آخر – بالمنظور القرآني المرن الشامل الذي يتسع للمسألة العلمية في توجهاتها كافة : اهدافا ومنهجا وحقائق وتطبيقا ..

ولكن ، وقبل الانتقال الى هذا القسم ، لابد من الاقرار بان حلقة العلوم الانسانية (كالتأريخ والاجتماع والنفس والقانون والاقتصاد والسياسة والادارة والآداب والفنون .. الخ) ستكون هي المعنية اولا بعملية اسلامية المعرفة بحيث تستحق ان تمنح الاولوية ، بسبب من ارتباطها الوثيق بالمنظور الفكري والاخلاقي ، وبسبب من انها ، الى حد كبير ، كانت ولا تزال بمثابة البوابات او القنوات الكبرى التي تسرب منها الخلل والتضارب والفوضى ، وثنائية التوجيه ، وضيق الخناق على المعطيات الاسلامية ، او دخن عليها في اقل تقدير ... وعبر جهود اجيال بكاملها من العلماء والباحثين في هذه الفروع كانت تساندها – في معظم الاحيان – سلطات وهيئات ومؤسسات لا يكاد يحصيها عد .. بل ان دولا كبرى رمت بثقلها بين الحين والحين في خضم هذا التيار.

ومن ثم ، فان لنا ان نتصور الحجم الكبير للجهود الاسلامية التي يمكن ان تعيد الامور الى نصابها الحق في هذا الفرع او ذاك من فروع المعرفة الانسانية ، والاولوية التي يمكن ان تمنح لمعطياتها الهائلة كما ونوعا. وهي امور لا يقدر عليها افراد او متخصصون في هذا الفرع او ذاك ، وانما هي بحكم تشعبها ، وتجذرها العميق في شبكة التصورات الخاطئة والمحاولات المضادة .. عمل جماعي ، أي عمل مؤسسات وهيئات تتطلب قدرا كبيرا من التنسيق والدعم العملي والمادي ، كما تتطلب قدرة متزايدة على تجاوز العوائق الجغرافية في محاولة للم وتوحيد كافة الطاقات التخصصية الاسلامية لإرفاد المحاولة الصعبة والاقتراب بها من حافة النجاح والتوفيق.

ولعل ما شهدته بداية الثمانينيات من قيام مؤسستين فعالتين في هذا المجال وهما : المعهد العالمي للفكر الاسلامي الذي يتولى – بمعاونة فروعه كافة – كبر المحاولة ، على النطاق العام. ورابطة الادب الاسلامي العالمية التي تتولى المهمة في دائرة الادب ذي التأثير البالغ في النشاط الثقافي العام. لمما يبشر بالخير الاكيد لكل من يحمله الامل الى اليوم الذي سترجع فيه المعرفة البشرية لكي تعانق الدين ، ويعود العلم فيه ، بعد رحلة تغرب وانقطاع ، الى ساحة الايمان ... لكي يأوي اليها ..

القرآن والعلم الحديث

ان الذي يقرأ كتاب الله الكريم بتمعن في محاولة للإلمام بطبيعة موقفه من (العلم) ، يجد نفسه امام حشد من الآيات البينات ممتدة وفق ابعاد اربعة توازي المسألة العلمية في اتجاهاتها كافة ، يتناول اولها مسائل تتعلق بحقيقة العلم وافاقه واهدافه ، فيما يعرف بفلسفة العلم ونظرية المعرفة ، ويتناول ثانيها منهج الكشف عن الحقائق العلمية المختلفة ، ويعرض ثالثها لمجموعة من السنن والقوانين في مجالات العلم المختلفة ، وخاصة الطبيعة والجغرافية وعلوم الحياة ، فيما يسمى بالعلوم المحضة او الصرفة ، ويدعو رابعها لاستخدام هذه السنن والقوانين التي كشف عنها منهج تجريبي في البحث من اجل ترقية الحياة وتنميتها على طريق خلافة الانسان لإعمار العالم ، فيما يعرف بالعلوم التطبيقية (التقنية).

وما من شك ان هناك ارتباطا وثيقا ومحكما بين هذه الابعاد يقود احدها الى الاخر ، فالفلسفة تحلل اهداف العلم ، والمنهج يطرح طريقة عمل للكشف عن الحقائق : السنن والنواميس التي تحكم الكون والعالم والحياة وتحمي صيرورتها الزمنية ذات النظام المعجز ... وهذه السنن والنواميس تمنح الانسان – بدورها – (المعادلات) التي يمكن بها من ان يدخل الى صميم التركيب المعجز هذا لبنية الكون والعالم والحياة من اجل اعتماد تلك السنن والنواميس لتنفيذ قدر من (التطبيقات) العلمية تمضي بالحضارة البشرية قدما صوب الاحسن والارقى وتتيح للإنسان ان يتحرر من شتى الضرورات لكي يكون اكثر قدرة على رفع راسه الى فوق ومحاورة السماء وتلبية حاجاته الروحية التي بها يتميز الانسان عن سائر الخلائق ويتمكن من تنفيذ اكثر امتدادا لمقتضيات خلافته (العمرانية) في العالم.

صحيح ان القران الكريم ما جاء لكي يكون كتابا (علميا) ، كما هو معروف ، وما جاء لكي يكون كتاب جغرافيا او تاريخ او أي من حقول المعرفة المتنوعة ، وصحيح ان الحاح بعض المفكرين المعاصرين على تحميل آيات الله معاني وتفاسير (علمية) لم تقصد اليها البتة ، قد دفع بعضهم الاخر وبرد فعل يتميز بالإلحاح نفسه ، الى نفي ان تكون للقران أية صلة بأيما حقيقة علمية. فالأمر الذي لا ريب فيه هو ان كتاب الله عالج مسالة العلم بطريقة مركبة تمتد الى كافة الابعاد بما لا يقبل لجاجة او انكارا ..

وانه لأمر بديهي ان تتعانق معطيات القران ومعطيات العلم بمفهومه الشامل وخارج نطاق النسبيات والمتغيرات ، وتتوازيان ، لا ان تتضادا وتقوم بينهما الحواجز والجدران ، ذلك ان مصدر العطاء واحد وهو الله جل وعلا موجد السنن والنواميس ، ومنزل القران .. خالق الكون والحياة وباعث الانسان. ليس هذا فحسب ، بل ان الانسان باعتباره معنيا بإيجاد السنن ونزول

القران ، الانسان بما انه خليفة الله في هذا العالم ويده المريدة التي تسعى الى اعماره وترقيته ، كما تؤكد المعطيات القرآنية ، يقود بالضرورة الى هذا اللقاء الاكيد بين كتاب الله وسننه في العالم، اذ كيف يستطيع الانسان ان يؤدي دوره في الارض في اطار تعاليم القران وشرائعه ، ان لم يتحرك – ابتداءً – لفهم هذا العالم والكشف عن سننه ونواميسه؟

وثمة ما يجب ان نشير اليه هنا : ان العلم الحديث لم يعد يرفض الحقيقة الدينية او يشكك فيها كما حدث في القرون السابقة ، وهو يعترف بان ليست لديه الكلمة النهائية في موضوع هو اكبر من حجمه بكثير .. ثم يعود لكي يؤكد – بإمكاناته المحدودة – ان الحياة البشرية لا تستحق ان تعاش اذا نحن جردناها من بعدها الكبير الذي يتجاوز حدود المادة والحركة .. يعود العلم لكي يتعانق مع الدين ويتوظف لديه .. ذلك هو الانقلاب الكبير الذي شهدته فلسفة العلم المتمخضة عن الكشوف الاخيرة في مجال البحث العلمي ، وبخاصة الطبيعة والذرة وطريقة عمل الدماغ البشري.

هناك مسألة اخرى لا تقل خطورة .. ان الكشوفات العلمية الاخيرة حطمت جدار المادة ، واطلت – وهي تتوغل في صميم الذرة – على عالم الروح الكامن في بنية العالم وتركيب الاشياء . ان العلم يلتقي هنا مع الدين ، مرة اخرى ، والحقائق كثيرة ، وقد ناقشناها في كتابنا (العلم في مواجهة المادية) ويكفي ان نحيل القارئ اليه ، والان فإننا سنتابع – بالقدر المطلوب من الايجاز – طبيعة العلاقة بين اتجاهات العلم الاربعة وبين معطيات القران الكريم. ويمكن لمن اراد الاستزادة ان يرجع الى كتابنا (مدخل الى موقف القران الكريم من العلم)[1].

---

(١) وسيجد فيه – كذلك – كافة الاستشهادات القرآنية لكل موضوع من الموضوعات والتي لم يتح المجال لإيرادها في هذه الصفحات الموجزة.

اولا: فلسفة العلم واهدافه والمبادئ الاسلامية الاساسية :

تعنى فلسفة العلم بتفحص وتحليل الاهداف التي يسعى لتحقيقها وطبيعة ارتباطها بأنشطة الإنسان الحضارية من جهة وبرؤيته للكون والحياة والعالم من جهة اخرى. وعلى ذلك يبدو البحث العلمي ومناهجه التجريبية في الكشف والتطبيق (ضرورة) من ضرورات الحياة الإسلامية وليست مسألة (كمالية) او امرا ثانويا. ذلك انها ترتبط ارتباطا وثيقا بنشاط الجماعة المسلمة وبطبيعة مهمتها في العالم ، وبعقيدتها الشاملة عن الكون والحياة والعالم والإنسان.

ونستطيع – هنا – ان نؤشر على عدد من المبادئ الاساسية في الحياة والرؤية الاسلامية ، تحتم اعتماد طرائق العلم ومناهجه ، والافادة من السنن والنواميس التي تكشف عنها الحقائق التي تصل اليها ، والتطبيقات التي تتمخض عن هذا وذاك.

تحتمها لأنها تسهم اسهاما اكيدا في (تعزيز) هذه المبادئ وتأكيد عناصر تلك الرؤية الشاملة ، وتساعد على السير بهما صوب مزيد من التنفيذ في ارض الواقع ، والتحقق في مجرى الفعل الحضاري.

(١) مبدأ الاستخلاف

ان مبدأ (الاستخلاف) الذي يطرحه الاسلام في كتابه وسنة رسوله (عليه الصلاة والسلام) هو واحد من هذه المبادئ التي يرفدها العلم ويمكن لها في الارض.

ان الانسان المسلم مستخلف في العالم ، بعث لتطويره واعماره وتذليل صعابه والاستجابة لتحدياته من اجل تسوية ارضيته كي تكون اكثر ملاءمة لحياة مطمئنة تعلو على الضرورات بعد ان تتحرر منها ، وتكون اكثر قدرة على التوجه الى اعلى ، الى خالقها جل وعلا دون ان تنكس رؤوسها ان تحني ظهورها ثقلة الجاذبية او ضرورات التراب.

وهكذا فان (تنفيذ) مهام (الاستخلاف) ومنحها الضمانات الكافية واعانتها على تحقيق اهدافها في التقدم الدائم ، لن يتأتى بدون اعتماد طرائق البحث العلمي ومناهجه للكشف عن سننن العالم والطبيعة ونواميس الكون من اجل الافادة من طاقاتها المذخورة وتحقيق قدر اكبر من الوفاق بين الانسان وبين محيطه وبدون هذا فان مبدأ الاستخلاف لن يكون بأكثر من نظرية او عقيدة تسبح في الفراغ.

(٢) مبدأ التوازن

ثمة ذلك المبدأ الاساس من مبادئ الحياة والفكر الاسلامي : التوازن بين الحاجات الروحية والمادية وهي مسألة عميقة في نسيج القران الكريم وسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بحيث نراها تأخذ اكثر من اتجاه وتتلبس اكثر من شكل ولطالما غفلنا عن واحدة من اشد البديهيات وضوحا في هذا المجال ، ذلك ان الله سبحانه ما دام قد سخر لنا الارض بما ينسجم ودورنا في العالم فان من التناقض الواضح ، المرفوض في الاسلام قطعيا ، ان يركب الانسان – من قبل الله سبحانه – تركيبا معينا ، وان تسخر الارض – بإرادة الله سبحانه – لتلبي متطلبات هذا التركيب ثم تجئ الاديان – من عند الله ايضا – لكي تفصل بين الروحي والمادي وتجنح باتجاه الاول ، ولكي تنصب الحواجز وتقيم الاسلاك الشائكة بين مطالب التركيب الادمي وبين خيرات الارض ومنافعها المسخرة.

وما دام الامر كذلك .. ما دام انه لا حياة اسلامية بمعنى الكلمة ان لم يتحقق ذلك التوازن العادل بين طرفي التكوين الانساني ، بل في نسيج التكوين الانساني بشكل ادق ، وما دام قد اريد للتجربة الاسلامية ان تتحرك على ارض الواقع وتصوغ انسانا متوازنا قديرا على الفعل والتغيير والحركة ، غير متأزم او جانح او مكبوت ، فلا بد من طرائق العلم وحقائقه وتطبيقاته لتنفيذ هذه الرؤية (التعادلية) التي لا نجدها في أي مذهب او عقيدة اخرى في هذا العالم بهذا القدر من الشمولية والالتزام.

(٣) مبدأ التسخير

وهو ملمح اساسي اخر من ملامح الرؤية الاسلامية للكون والحياة ، يحتم ولا ريب اعتماد العلم لتحويله الى ارض الواقع والتحقق بعطائه الكريم.

ان العالم والطبيعة ، وفق النظرة الاسلامية ، قد سخرا للإنسان تسخيرا والله سبحانه قد حدد ابعادهما وقوانينهما ونظمهما واحجامهما بما يتلاءم والمهمة الاساسية لخلافة الانسان في العالم وقدرته على التعامل مع الطبيعة تعاملا ايجابيا فاعلا.

ولقد اراد الاسلام ان يطرح طريقا او منهجا وسطا بصدد هذا التعامل فاعلن للبشرية مبدأ التسخير للطبيعة لخدمة الاهداف الانسانية ولكنه – في الوقت نفسه – يضبط صيغ التعامل بين الطرفين بقيم ومبادئ واعراف تحقق اقصى درجات التكشف والابداع وتنشئ اكثر الصيغ الحضارية ملاءمة لطموح الانسان واخلاقياته ومكانته في الكون.

وانه بدون اعتماد قدرات العلم ، منهجا وحقائق وتطبيقا ، فلن يكون بمقدور أية جماعة اسلامية ان تنفذ مبدأ التسخير وان تحوله الى فعل تاريخي متحقق.

(٤) مبدأ الارتباط المحتوم بين الخلق والخالق

تبقى ، اخيرا ، ضرورة اعتماد العلم للتحقق من واحد من اهم المبادئ في المنظور الاسلامي والديني عموما وهو الارتباط المحتوم بين نظام الخلق المعجز ووجود الخالق سبحانه. ان العلم هو الاداة التي تكشف عن هذا الارتباط وتضيئه وتزيده ايضاحا. ولقد كتب الكثيرون عن معجزة الخلق ، وقطع حشود من العلماء اعمارهم بحثا وتنقيبا لكي ما يلبثوا ان ينتهوا الى احدى المسلمات الكبرى في تاريخ العلم : انه لا بد للخلق من خالق : مسألة محسومة لا تقبل لجاجة ولا انكارا .. ان الخلق ما دام على هذه الدرجة من النظام او لضبط والدقة والتوافق والحركة المرسومة والهدف المقصود والارتباطات الهادفة .. فلا بد ان يكون صدورا عن ارادة فوقية قادرة مدبرة .. انها مسألة محسومة برياضيات العلم ومعادلاته والشواهد كثيرة ، والنتائج التي يتمخض عنها السعي العلمي الجاد لا تعد ولا تحصى. وسوف يكون من قبيل التكرار لو اقتبسنا – هنا – نصوصا للنتائج والشهادات والاقوال.

وعلى هذا فان البحث العلمي يعد ضرورة من ضرورات الحياة الاسلامية ، ما دام يمارس هذه الوظيفة الخطيرة في الكشف عن سر الكون والحياة والعالم ، ويقود الى صانع الكون والحياة والعالم وفق اشد الطرائق اقناعا ولأنه يلتقي مع العبادة نفسها في التوجه الى الخلاق العظيم.

ثانيا: المنهج

في هذا الاتجاه يطرح القرآن الكريم منهج عمل للكشف عن سنن العالم والحياة ، ونواميس الكون وهو منهج شامل مرن لا يخضع لتقلبات الزمان والمكان لأنه مجرد طريقة او اداة للبحث والتنقيب ، ومن ثم فانه يعلو على المتغيرات النسبية ويظل ساري المفعول في أي عصر وفي أية بيئة.

لقد دعا القران الناس الى التبصر بحقيقة وجودهم وارتباطاتها الكونية عن طريق (النظر الحسي) الى ما حولهم ، ابتداء من مواضع اقدامهم وانتهاء بآفاق النفس والكون .. واعطى (للحواس) مسؤوليتها الاساسية عن كل خطوة يخطوها الانسان المسلم في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب وناداه الى ان يمعن النظر فيما حوله : الى طعامه .. الى خلقه .. الى الملكوت .. الى التاريخ .. الى خلائق الله .. الى آياته المنبثة في كل مكان .. الى النواميس الاجتماعية .. الى الطبيعة وهي تنبعث من قلب الفناء برحمة من الله ومقدرة .. الى الثمار وهي تتدلى من غصون الاشجار .. الى الحياة الاولى كيف بدأت وكيف نمت وارتقت.

دعاه ان يحرك سمعه باتجاه الاصوات لكي يعرف ويميز فيأخذ او يرفض ، فمن الاختيار البصير ينبعث الايمان.

وانتقل القرآن خطوة اخرى .. فسأل الناس ان يحركوا بصائرهم. تلك التي تستقبل في كل لحظة مدركات حسية ، سمعية وبصرية ولمسية لا حصر لها ، ومن ثم تتحمل البصيرة مسؤولياتها الاساسية في تنسيق هذه المدركات وتمحيصها وموازنتها من اجل الوصول الى الحق الذي تقوم عليه وحدة نواميس الكون والخليقة ..

ان العقل والحواس جميعها مسؤولة ، لا تنفرد احدها عن الاخريات في تحمل تبعة البحث والتمحيص والاستقراء والاختيار .. والانسان مبتلى بهذه المسؤولية لأنه من طينة اخرى غير طينة الأنعام .. ومن ثم تتوالى الآيات ، تؤكد المرة تلو الاخرى على ان السمع والبصر والفؤاد جميعا هي التي تعطي للحياة الانسانية قيمتها وتفردها ، وان الانسان (بتحريكه) هذه القوى والطاقات ، بفتحه هذه النوافذ على مصراعيها ، باستغلال قدراته العجيبة حتى النهاية ، سيصل الى قمة تفوقه العلمي والديني على السواء ، لان هذا التفوق سيبوأه مركزه المسؤول سيدا على العالمين وخليفة في الارض .. وانه بتجميده هذه الطاقات ، وقفل نوافذها وسحب الستائر والاغطية عليها ، يكون قد اختار بنفسه المنزلة الدنيا التي ما ارادها الله له يوم منحه السمع والبصر والفؤاد .. منزلة البهائم والأنعام.

وثمة حشد آخر من الآيات ، بلغ ما يقرب الخمسين ، حث على تحريك العقل ، المفتاح الذي منحه الله لبني آدم لكي يفتحوا به ابواب الملكوت ويدخلوا ساحة الايمان بالله الذي سخر لهم ما في السماوات والارض .. وآيات اخرى دعت الانسان الى التفكير العميق المتبصر المسؤول بكل ما يحيط به من ظواهر وموجودات وأشياء.

وما يقال عن التفكر يمكن ان يقال عن (التفقه) الذي هو خطوة عقلية ابعد مدى من التفكير ، اذ هي الحصيلة التي تتمخض عن عملية التفكير وتجعل الانسان اكثر وعيا لما يحيط به واعمق ادراكا لإبعاد وجوده وعلاقاته مع الكون ، كما تجعله متفتح البصيرة دوما ، مستعدا للتحاور المسؤول ازاء كل ما يعرض عليه من اسئلة وظواهر ومعضلات.

وأكد القران الكريم على الاسلوب الذي يعتمد (البرهان) و(الحجة) و(الجدال الحسن) للوصول الى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء والمقارنة والموازنة والتمحيص استنادا الى المعطيات الخارجية المتفق عليها ، والقدرات العقلية والمنطقية لأولئك الذين تفوقوا في هذا المضمار.

وثمة حقيقة قرآنية على درجة كبيرة من الاهمية تلك هي ان كلمة (العلم) وردت في القرآن الكريم كمصطلح على (الدين) نفسه الذي علمه الله انبياءه (عليهم السلام) .. على النواميس التي يسير بها الله ملكوته الكبير .. على الحقائق الكبرى الموجودة عند الله سبحانه في

(ام الكتـاب) .. وكإشـارة الـى القـيم الدينيـة التـي تنزلـت مـن السـماء . ومـن ثـم يغـدو (العلـم) و(الدين) سواء في لغة القرآن. ان كلمات الله سبحانه تعلمنا هذه الحقيقة ، وتبصرنا بمواقع العلم والدين الفسيحة ، الممتدة ، المتداخلـة ، كمـا اراد الله لهـا ان تكون ، لا كمـا يريد لهـا اصـحاب (الظن) و(الهوى) من الوضعيين. ولا يسعنا هنا استعراض هذه الآيات .. ويكفي ان نشير الى ان كلمة (علم) بتصريفاتها المختلفة وردت في عدد من الآيات جاوز السبعمائة والخمسين.

وفي مقابل تأكيد القرآن المتزايد على اعتماد (الموقف العلمي) الشامل ازاء الكون والعالم والحياة ، يعلـن رفضـه القـاطع لكل مـا مـن شـانه ان يمس هذا الموقـف او يلغيـه او يصـده عن العمل : الهوى والظن والسحر والخرافة .. ان هذه الممارسات (اللا علمية) ، اذا صح التعبير ، تأتي جميعا بمثابة (الضلال) عن الطريق القويم الذي جاء به الدين كي يدعو الانسان للسير فيه الـى اهدافـه علـى خـط مستقيم . والخـط المستقيم – كمـا هـو معـروف – اقـرب المسـافات بـين نقطتين، واي انحراف عن هذا الطريق سيبعد الشقة ويطيل الجهد ويلتوي بالسائرين. وقد لا يصل بهم إلى اهدافهم أبداً.

ان القرآن الكريم يعلن مرارا عن هذه المعادلـة الواضـحة البينـة : انـه ليس بعد الهدى إلاّ الباطل والعمى ، وما بعد الحق إلاّ الضلال.

ثالثا : الحقائق

فـي البعـد الثالـث يقدم القرآن حشـدا مـن الحقـائق والسـنن والنـواميس فـي مجـالات العلـم المختلفة : الفلك والجغرافيا والنبات والحيوان والانسان ، في عدد واسع من المقاطع والآيات. وهنا يلجأ بعض المفكرين او المفسرين المحدثين الى اعتماد احد موقفين متضادين ، يتكئ اولهما كلية على معطيات العلم الحديث لتفسير آيات القرآن الكريم والوقوع بالتالي في خطأ منهجي يقوم على تحكيم الجزئي بالكلي ، والمتغير بالدائم ، والنسبي بالمطلق. فاذا ما حدث وان تبدلت الجزئيات والنسبيات العلمية ، وهذا شأنها كما يؤكد العلماء انفسهم ، ادى ذلك الى احداث شرخ ، او قلق ذهني ازاء تلك الآيات التي فسرت وفق مقولات لم يتح لها الدوام.

أما الموقف الثاني فيرفض كلية الاعتماد على معطيات العلم الحديث تحسبا من مصير كهذا فيقع في مظنة التفريط هو الآخر.

والمنهج الاقرب الى الصواب هو ان نتخذ موقفا (وسطا) كما علمنا كتاب الله نفسه فـي كافة مساحات الحياة ، فلا هو بالالتصـاق التام بمعطيات العلم المتغيرة ولا هو بـالرفض الكامل للتفسير بها.

إن المفسر المعاصر يتحتم عليه ان يعمل عقله وقدراته في مجال تخصصه اذا توفرت لديه ، لإدراك طبيعة العلاقة بين طرفي المعادلة : الآية القرآنية والمقولة العلمية ، مستفيدا من جهة اخرى ، من الاتجاهات الحديثة التي نضجت أخيرا في مجال التفسير القرآني ، تلك الاتجاهات التي تعتمد مفردات القرآن نفسه ومنحنياته البيانية لفهم مضامينه ومعانيه فيما يعرف بالتفسير البياني أو الدلالي للقرآن والذي من شأنه ان يمنح المفسر ضمانات موضوعية لنشاطه تحميه من الافراط او التفريط في محاولة الوصول الى الدلالات المقصودة للكلمات والتراكيب الجملية .. ومن خلال هذا التوازن في القدرة العلمية (المتخصصة) والقدرة التفسيرية (البيانية) يمكن للمفسر ان يتحرك للكشف عن الدلالات المقصودة للآيات العلمية في كتاب الله.

هنالك من الحقائق العلمية ما أصبح بمثابة قوانين نهائية بل بداهات مسلم بها لا تقبل نقضا ولا تغييرا ، من مثل الدور الذي تلعبه الرياح في عملية الامطار ، ومن مثل الدور الذي تلعبه الجاذبية في حركة المجموعة الشمسية ، ومن مثل المراحل التشريحية التي يمر بها الجنين، وتغير نسب المكونات الغازية قربا او بعدا عن سطح الارض. وغير هذه الحقائق امور كثيرة ما كان العربي يوم نزول القرآن يلم بأبعادها (العلمية) ومن ثم فان تفسير الآيات القرآنية التي تناولت هذه الحقائق واكدت عليها كما انه سيتكئ على بداهات علمية بالنسبة للقرون الاخيرة في الاقل فانه سيكشف – في الوقت نفسه – عن جانب من جوانب الاعجاز العديدة التي تضمنها القرآن وأشار اليها.

وهنالك من الحقائق العلمية ما يحتمل اكثر من وجه ، ولكن هذه الوجوه جميعا انما تدور في اطار واسع مرن ليس هناك من مانع في ان تحيل عليه آيات قرآنية اخرى لإدراك دلالاتها من مثل تلك الآيات التي تؤكد على (النظام) الذي يمسك بناء السماوات المعجز من ان يتفكك ويضيع.

أما النظريات التي لا تزال موضع أخذ ورد ، والتي لم تتبلور كحقائق وبداهات مسلم بها، فان بمقدور المفسر ان يكون حذراً ازاءها ، وألا يتكئ عليها الا بمقدار ما يتيح له ذلك تسليط الضوء على جانب من جوانب المضمون الذي تحتويه الآية.

ليست سواء .. معطيات العلم التي تتمخض باستمرار ، ومن ثم فان التعامل معها يجب ان يحاذر عن مظنة الارتباط الكامل او الانفصال الكامل.

ان الارتباط الكامل سيمنع القدرة على الفهم والادراك من التحرك في شتى الاتجاهات ، والانفصال الكامل سيضعف هذه القدرة ويقيم أسلاكا شائكة بين جانب من معطيات القرآن وبين الانسان المعاصر.

ان (الحقائق) التي يطرحها القرآن والتي اريد منها ان تكون (شواهد) تقود الانسان الى الايمان بالله الواحد القهار العالم المريد ، تنتشر وتتوزع على مساحة القرآن كله ، ويجب ان

نلاحظ ان ليس كل ما طرحه القرآن الكريم في هذا الحقل او ذاك من حقول العلم العديدة أريد به ان يكون (اعجازا) للأجيال التالية ، ولم يكن معروفا – بالتالي – في عصر النزول. فثمة صنفان من الآيات نطالعهما في اي حقل الحقول : صنف جاء على سبيل الاخبار ولفت الانظار الى خليقة الله وابداعه في الكون والعالم والنفس ، وهو يعرض لحقائق وظواهر وموجودات كانت معروفة في عصرها ، كما هي معروفة في كل عصر. وصنف آخر تضمن اشارات لحقائق وسنن ونواميس (علمية) ما كانت معروفة في عصرها ، وتولى العلم – بمرور الزمن – الكشف عنها وهي التي تسمى عادة بالإعجاز العلمي للقرآن.

كما يجب ان نلاحظ ان ما طرحه القرآن الكريم لا يمثل كشفا بكافة الحقائق العلمية ، فالقرآن الكريم – كما سبق وان ذكرنا – ليس كتابا علميا وانما هو يكتفي بالكشف عن بعض الحقائق والاشارة الى بعضها الآخر ، وتبقى حشود اخرى من الحقائق ، اكثر بكثير ، تركت للإنسان حرية الكشف عنها. والمنهج الذي طرحه القرآن الكريم نفسه ، كما مر بنا ، يمثل ضرورة ايمانية ملحة لمواصلة هذا الكشف.

رابعا : التطبيق

في الاتجاه الرابع نطالع في القرآن الكريم دعوة ملحة في اكثر من موضع الى اعتماد حقائق العلم وكشوفاته لتطوير الحياة وترقية الحضارة البشرية بمزيد من التطبيقات التقنية (التكنولوجيا) على كافة المستويات. وهو الآخر موقف مرن ، يتميز بالشمولية والديمومة ، اذ انه دعوة للإفادة من الحقائق (العلمية) الراهنة في مدى كل عصر لإحداث تطبيقات على مستوى العلاقات (المدنية) لذلك العصر ، فاذا ما حدث وان تغيرت الحقائق العلمية وتبدلت العلاقات المدنية ، كان بمقدور النداء القرآني ان يمضي لكي يخاطب كل جيل من اجل ان يتحرك لإحداث تطبيقات اخرى على مستوى الحقائق الجديدة ومن خلال العلاقات المتغيرة.

وهكذا فكيفما تلفتنا ، عبر هذا البعد الرابع من معالجة القرآن للمسألة العلمية ، وجدناه يتخذ دعوة دائمة لا تحدها حدود ولا تأسرها متغيرات ولا نسبيات لدفع الجماعة المؤمنة الى صياغة مزيد من التطبيقات المبنية على حقائق العلم وكشوفاته ومعادلاته.

ألم يدعنا القرآن الكريم الى ان نعد لأعدائنا (القوة) التي نرهبهم بها ، ونحمي – بالتالي– وجودنا ودورنا في الارض ؟ ألم تأت هذه الدعوة متضمنة هذا الموقف المرن ، الشمولي الممتد عبر الزمان والمكان والذي يلتقي فيه الراهن بالشامل ، والموقوت بالدائم ؟ **{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ }** مطلق القوة ، **{ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ }** ، اكثر الأسلحة مضاء في ذلك العصر على وجه الخصوص **{ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ }** (سورة الانفال ٦٠). ألم يؤكد في سورة

الحديد على اعتماد هذا الخام الخطير في ميادين السلم والحرب ، دونما تحديد ملزم لطرائق الاعتماد وصيغه ؟ **{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }** (سورة الحديد ٢٥).

فهل ثمة اكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من تسمية سورة كاملة باسم خام من اهم واخطر خاماتها ؟ وهل ثمة اكثر اقناعا لنزعة التحضر والتطبيق العلمي (التقني) والابداع والبناء ، التي جاء الاسلام لكي يجعلها جزءا اساسيا من اخلاقيات الايمان وسلوكيته في قلب العالم ، من هذه الآية التي تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة انزلها الله لعباده ، وتعرض معها المسألة في طرفيها اللذين يتمخضان دوما عن الحديد : (البأس الشديد) متمثلا باستخدام الحديد كأساس للتسلح والاعداد العسكري ، و (المنافع) التي يمكن ان يحظى بها الانسان من هذه المادة الخام في كافة ميادين نشاطه وبنائه (السلمي) وهل ثمة حاجة للتأكيد على الاهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن ، في مسائل السلم والحرب ، وانه غدا في عصرنا الراهن وسيلة من اهم الوسائل في ميادين القوة الدولية سلما وحربا ؟ ان الدولة المعاصرة التي تملك خام الحديد تستطيع ان (ترهب اعداءها) بما يمنحها اياه هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل ، وتستطيع ايضا ان تخطو خطوات واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعتها وغناها.

والآن ونحن نتكلم عن الحديد ونلتقي بصورة كاملة سميت باسمه نتذكر – في الوقت نفسه – آيات من سورة (سبأ) تذكر نعمة الله على داود (عليه السلام) بتليين الحديد له او تعليمه كيف يلين الحديد وهي بصدد الحديث عن البناء والاعمار والتصنيع ، ونتذكر ايضا ذا القرنين وهو ينادي الجماعة المضطهدة لكي يحميها من الغزاة **{ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً{٩٦} فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً{٩٧}** : (سورة الكهف ٩٦ – ٩٧).

هنالك تلك الصورة الفذة التي يرسمها القرآن عن ذلك التناغم بين الانسان والطبيعة وما وراءها ، وذلك التوازن بين تسخير القوى المادية (وتصنيعها) وبين عبادة الله سبحانه ، وذلك التقابل المبدع بين النزعتين الجمالية والعملية ، وهذه المعادلة الواضحة بين جبروت الانسان وقدرته الفعالة وبين نسبيته وضعفه وحاجته الدائمة الى الله ، وهذا التأكيد المستمر على حماية الفاعلية البشرية من الجنوح والانحراف بعيدا عن المتطلبات المادية والروحية .. **{ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ{١٠} أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{١١} وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ**

عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ{١٢} يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ{١٣} فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ{١٤} (سورة سبأ ١٠ – ١٤).

وفي سورة (ص) نقرأ **{ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ{٣٥} فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ{٣٦} وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ{٣٧} وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ{٣٨} هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ{٣٩}** (سورة ص ٣٥ – ٣٩). ثم نقرأ في سورة الانبياء (**... وكلا أتينا حكما وعلما وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير ، وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون ؟ ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره الى الارض التي باركنا فيها ، وكنا بكل شيء عالمين . ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين) {... وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ{٧٩} وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ{٨٠} وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ{٨١} وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ{٨٢}** (سورة الانبياء : ٧٩ – ٨٢).

ان هذه المقاطع التي آثرنا الوقوف عليها كنماذج ، من بين كثير غيرها ، تبين لنا قمة الاندماج الحضاري الفاعل بين الانسان والطبيعة والقوى غير المرئية ، في حوارها الخلاق مع الله سبحانه أخذا وعطاءا .. ان طاقات الكون تنسجم هنا وتتناغم وتعمل بتوافق مرسوم في خدمة الانسان الذي يتوجه الى الله في اصغر فاعلياته واكبرها ، حامدا ، شاكرا ، عابدا للمنعم الذي منحه هذا كله لكي يختار موقعه الصحيح الذي أنشئت الحياة على الارض من اجله **{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ{٥٦} مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ{٥٧}** (سورة الذاريات ٥٦ – ٥٧).

اننا هنا نلتقي باثنين من عباد الله المصطفين ، داوود وسليمان (عليهما السلام) ، وقد سخرت لهما قوى الطبيعة الهائلة والطاقات الغيبية التي لا يحدها جدار زمني او حاجز مكاني ، والتي أخذ العلم يطأطئ رأسه امامها اخيرا ، سخرت جميعا لكي تعمل تحت امرة الانسان المؤمن المسؤول : الحديد ، الريح ، القطر (النحاس السائل) ، الجن .. في عدد مشار اليه من مساحات العمل الحضاري صناعة وعمرانا وبناءا وفنونا .. وبمقدور المرء ان يلحظ في ميدان هذا النشاط تلك الاشارات الواضحة الى الحديد والنحاس اللذين قد تبين لنا في قرننا العشرين ، كم هما ضروريان للحضارة المعاصرة ولكل حضارة تريد ان تعمر وتصنع وتبني

وتتفنن وتطبق .. وبمقدوره ان يلحظ كذلك ان الله سبحانه لم يمنح الحديد فحسب لداوود (عليه السلام) ولكنه يعلمه كيف يلينه. ولن ننسى هنا الاشارة الى الريح التي بينت الدراسات الجغرافية كم هي خطيرة في اعمار الارض والحياة او في ذبولهما ومواتهما.

ان هذه الآيات ، وغيرها كثير ، تقدم لنا الرد الحاسم على القائلين بان الاديان السماوية ما جاءت الا لكي تقود المؤمنين الى مواقع العزلة والسكون وتلقي في روعهم ان الدنيا (قنطرة) وان عليهم ان يعبروها ولا يعمروها . ومن ثم يغدو (الدين) في تصورهم نقيضا (للتحضر) ، ويقف الايمان بمواجهة الخلق والابتكار الابداع ، وتتحول العلاقة بين الانسان وخالقه جل وعلا ألة ممارسة سكونية (استاتيكية) تاركة للمذاهب الوضعية ان تأخذ زمام الحركة (الديناميك) من اجل تطوير الحياة وترقيتها.

ان هذا التصور الخاطئ مرفوض من اساسه ، وامامنا شاهد فحسب من مئات الشواهد القرآنية على هذا الرفض لمواقف اتكالية مهزومة تسعى لان تجعل الدين والتطور عدوين لدودين.

التراث المعرفي الاسلامي

ان البحث المتمعن في طبيعة الارتباط بين معطيات تراثنا المعرفي بكافة فروعه وبين التصور الاسلامي ، يعد بحد ذاته واحدة من الضرورات الملحة في انشطتنا الفكرية والمنهجية المعاصرة. كما انه يعد من الضروري متابعة محاولة الانفصال في هذا التراث وحجم التأثيرات المضادة ومواردها الاساسية والتحول – بالتالي – الى تنفيذ عملية تمحيص وانتقاء شاملة تضع بين يدي المسلم المعاصر كافة مفردات وتفاصيل المعطيات التي قدمها الاجداد في نطاق التصور الاسلامي. فكيف ان كان الامر متعلقا بعملية أسلمة المعرفة بالذات ؟ الا تحتم مهمة كهذه ، متابعة وتنفيذ تلك الخطوات الاساسية الثلاث في دائرة التراث المعرفي الانساني، من اجل رفد العملية واغنائها بالعناصر والقيم الصالحة في بنية هذا التراث ؟

صحيح ان جهدا كهذا ، في سياقاته الثلاثة ، يقتضي حشدا كبيرا من الطاقات المتخصصة القادرة على أداء المهمة بأكبر قدر من الدقة والالتزام والالمام .. ومع الحشد الكبير فترة زمنية قد تستغرق الاعوام وربما العقود الطوال. الا ان حتمية محاولة كهذه تستحق العناء ، اذ لا يمكن لبرنامج الاسلمة ان يبدأ من نقطة الصفر مخلفا وراءه معطيات وخبرات تجارب الاجداد الغنية بمفرداتها في مجال المعرفة كافة ، تلك المفردات التي بلغ بعضها حدا من التألق والفاعلية بحيث انه عد ، في نظر الغربيين ، انفسهم ، جزءا اصيلا في النسيج الثقافي والعلمي للحضارة المعاصرة.

فاذا تذكرنا – كذلك – ان دائرة العلوم الانسانية في هذا التراث قد تتفوق في جوانب منها، وبكافة المقاييس ، حتى على نظيراتها لدى الامم الاخرى ، وفي نطاق الحضارة المعاصرة كذلك ، في ريادتها .. في قدرتها على الكشف .. وفي انسجامها بنسبة اعلى مع هموم الانسان ومطالبه وطبيعة تكوينه ، ادركنا ان الامر ليس فيه مجال لخيار ، وان تجاوز هذا الكم الكبير من المعطيات التراثية يمثل خسارة ليس للمسلمين فحسب بل للمعرفة البشرية كافة.

ومنذ البدء ، وكمؤشر عام ، فان علينا ان لا نقع في مظنة التسليم بأحد التعميمين التاليين :

أ) أن التراث الاسلامي يعبر بكليته عن التصور الاسلامي للكون والعالم والحياة والانسان.

ب) ان التراث الاسلامي لا يمثل بالضرورة امتدادا لهذا التصور.

فهذا التراث انما هو نسيج متداخل الخيوط بين ما هو اصيل وما هو طارئ دخيل .. بين معطيات تشكلت من مقولات القرآن والسنة ، وتخلقت في اطارتهما ، وبين انشطة اقحمت

اقحاما في مجرى الفعل الحضاري الاسلامي ، بتأثير الدهشة والاعجاب بهذا الجانب او ذاك من معطيات الغير .. او عن قصدية مسبقة لعناصر غير اسلامية ، بالمفهوم غير المحدد للكلمة ، لزرع اجسام غريبة في نسيج هذه الحضارة ومحاولة غزوها والتلبيس عليها من الداخل.

وفي كل الاحوال فان الباحث يجد نفسه قبالة صعوبة بالغة وهو يتعامل مع التراث قبل ان يتبين بوضوح ما هو اسلامي اصيل منها وما هو يوناني او فارسي او هندي او يهودي او نصراني دخيل. بل ان المعطى الواحد نفسه ، في هذا الحقل او ذاك من حقول المعرفة قد يتضمن المادتين معا ، فهو في بعض جوانبه اسلامي وفي جانب آخر غير اسلامي ، ليس بالضرورة بالتفاصيل والجزيئات ، ولكن في الخطوط العريضة ومنطلقات التصور الاساسية.

ان ثنائية كهذه تمضي إذا لكي تعمل عملها باتجاهين ، اولهما تشكيل نمطين من المحصلات المعرفية متضادين في اسسهما التصورية ، وثانيهما جعل المعطى المعرفي الواحد يتضمن اشكالية التداخل بين النمطين.

واذا كان هذا يبدو واضحا فيما اصطلح عليه بالفلسفة الاسلامية بسبب من تأثرها الواضح بالفلسفة اليونانية ، وتقبلها الكثير من مقولاتها على مستوى المنهج والموضوع ، فانه قد لا يبدو بهذا القدر من الوضوح في حقول علمية او انسانية اخرى.

وفي كل الاحوال – كذلك – فان محاولات الدراسة والتمحيص ومتابعة طبيعة الارتباط او الانفصال تقتضي قدرا كبيرا من الالمام بأسس التصور الاسلامي ومقوماته من جهة ، وبمطالب التخصص العلمي بهذا الفرع من فروع المعرفة او ذاك ، ومعنى ذلك ان المحاولة في مجملها تقتضي ملاكا او كادرا او فريقا متكاملا يضم جناحيه على المتخصصين (الاسلاميين) في كافة فروع المعرفة. اذ ليس بمقدور متخصص في الفلسفة مثلا ان يمارس العمل في حقل التاريخ ، وليس بمقدور هذا ان ينفذ المهمة في حقل الفقه والتشريع ، كما انه ليس بمستطاع الآخرين ان يأتيا بنتائج مقنعة وهما يكلفان العمل في حقل اللغويات والآداب والفنون .. وهكذا.

قد يلتقي هؤلاء جميعا في الخطوط العريضة لمنطلقات العمل ، هذه الخطوط او الضوابط (التصورية او الشرعية) التي لابد وان يحيلوا عليها مفردات الحقول التي يجوسون فيها .. لكن ، وبعد هذه البداية يمضي كل منهم في طريقه لكي يتعامل مع فرع يختلف في منهجه وتوجهاته ونتائجه وطبيعة اهتمامه عن سائر الفروع الاخرى.

ثمة ضرورة اخرى يتحتم ان نضعها في الحسبان تلك هي وضع او تصميم منظومة من المعايير التي يتم بموجبها التعامل مع المعرفة التراثية .. ومنظومة كهذه بقدر ما ستمنح النشاط خطاً منهجيا مرسوما ، وليس ضربا على غير هدى ، بقدر ما يستعين العاملين على اختزال الجهد والوقت ، وصولا الى هدفهم المرتجى.

لا يخفى على احد ان المعارف التراثية ليست سواء في قيمتها " العلمية " وفي قدرتها على التأثير في البنيان المعرفي للعصر الذي نعيشه ولمستقبل هذا العصر ، اي في تواصلها مع العصر وديمومة فعاليتها في المكان والزمان .. كما لا يخفى على احد انه بالنسبة للمسلمين بالذات فان هنالك سلما للأولويات يجعل هذا الجانب من المعطيات التراثية ضروريا لا يمكن تجاوزه بحال من الاحوال .. ويتساهل مع جوانب اخرى أخذا ورفضا .. وجوانب ثالثة يبدو ان رفضها او اهمالها في الاقل ، يمكن ان يكون ضروريا.

فاذا وضعنا هذا في الحسبان فانه سيوفر علينا الكثير من الطاقات لأنه سيسقط ابتداءً ما يمكن تسميته خطأ بحرمة التراث او قدسيته ، الامر الذي يفترض تقبله ، في اطاره العام وبكافة مفرداته ، ويفرض بالتالي تمحيصه وفرزه بالكلية وصولا الى فك الارتباط بين عناصره الاصيلة ذات الجذور الاسلامية ، وتلك التي اقحمت عليها من مصادر خارجية.

لكننا من خلال منظومة الاوليات سنوفر جهدا كهذا ازاء كم كبير من المعطيات التراثية قد لا تكون له ، فيما عدا الاهمية التاريخية الساكنة ، ايما تأثيرات على العصر الذي نعيشه ، ان على مستوى البشرية ، او في دائرة الجماعات الاسلامية.

ولنضرب على ذلك بعض الامثلة من بين حشود منها تعد ولا تحصى. ففي علم الاجتماع (او العمران البشري) في المصطلح القديم ، يبدو عمل كـ (مقدمة ابن خلدون) وسائر الاعمال الاخرى التي حذت حذوه ، ضرورية لمطالب البحث في هذا الفرع من فروع المعرفة ، ليس على مستوى المسلمين وحدهم بل في نطاق العالم الذي كانت (المقدمة) بالنسبة اليه كشفا اساسيا لهذا الحقل المعرفي المهم ، وضعت من خلاله الكثير من مفرداته التي لا تزال الانشطة المنهجية لهذا العلم تأخذ بها ، وتضيف عليها ، بكل تأكيد.

وفي علم التأريخ فان المعرفة البشرية عامة لن يكون بمقدورها ان تستكمل تغطيتها المعرفية للتأريخ البشري ام لم يول الاهتمام الكافي لمؤرخ (كالطبري) مثلا ولمساحات واسعة من علم التأريخ الاسلامي حماية وكشفا وتحليلا ودراسة وتركيبا .. فكيف بالأمة الاسلامية نفسها ؟

وما يقال عن الاجتماع والتأريخ يمكن ان يقال – مثلا – عن التربية والجغرافيا والآداب والفنون ... الخ فاذا كانت فروع كهذه ضرورية على المستوى العام ، فان ثمة ما هو أشد ضرورة والحاحا بالنسبة للمسلمين انفسهم من مثل التراث القانوني ، والفقهي والتشريعي ، الذي يمكن بدراسته وتمحيصه وتبويبه ، التمهيد لحركة الاجتهاد الاسلامية ان تستأنف من جديد ، ليست منطلقة من الفراغ او قافزة عبر فجوة زمنية متطاولة وانما من خلال تواصل زمني مطرد لهذا الفرع الخطير من فروع المعرفة.

صحيح ان الباحثين في هذه العلوم سيجدون في نسيجها مساحات ، وربما مساحات واسعة ، لم تعد تحمل اية قيمة معرفية او شرعية (ولنتذكر على سبيل المثال بعض استنتاجات

ابن خلدون الناقصة او الخاطئة ، على مستوى علم الاجتماع ، وحشود الاكاذيب والتحزبات والميول والاهواء على مستوى التأريخ ، وسيول الاسرائيليات على مستوى علوم القرآن ، والحلول الفقهية لمشاكل ومتغيرات عفا عليها الزمن على مستوى الفقه والتشريع ، ومعطيات النقد الفج الذي لا يقوم على منهج وانما يعتمد الذوق الخالص على مستوى الآداب ... الخ).

ولكن هذا كله لن يسقط حسبان هذه المعارف على خط الضرورات البشرية والشرعية .. كل ما هنالك انه سيتيح للباحث فرصة لإسقاط المساحات غير المجدية في نسيج هذه المعطيات الامر الذي قد يخفف عن كاهله جانبا ليس بهين من عبء التمحيص الذي انيط به.

لكن في مقابل هذا كله ، انماط من المعارف قد لا تمثل التضحية بها او تجاوز فرزها او تمحيصها ، او تعليقها زمنيا في الاقل ، خسارة كبيرة على مستوى المعرفة البشرية، او الضرورات العقيدية والتشريعية ، وارجو الا اكون مخطئا او مبالغا إذا ضربت بالفلسفة (ابن سينا، الكندي ، الفارابي ... الخ) ، الجدليات الفرقية ، واقسام واسعة من علم الكلام ، والعديد من النظريات الفجة ، الناقصة في مجالات العلوم الصرفة والتطبيقية ، وبخاصة (علوم الطبيعة والفلك والحياة والنفس .. الخ) مثلا على ذلك.

والمهم ان وضع معارف كهذه في اسفل المنظومة سيخفف العبء عن عاتق العاملين في تمحيص التراث ويمكنهم من تقديم الاهم على المهم على الاقل اهمية وبالتالي سيوفر عليهم الكثير من الجهد والوقت اللازمين لانجاز مهمة ملحة كهذه تعد واحدة من اهم الضرورات اهمية في مشروع اسلمة المعرفة لأنها بمثابة تجذير للعمل في الاصول التصورية والحضارية والتاريخية للأمة الاسلامية ، وتجاوز لمجازفة الانطلاق من نقطة الصفر او الحركة من الفراغ .

لقد اصبح التراث الاسلامي في العقدين الاخيرين على وجه الخصوص ، ساحة مفتوحة يصول فيها ويجول مفكرون لا يمتلكون قدرا كافيا من فهم اسس التصور الاسلامي ومقوماته ، بل هم في كثير من الاحيان في خصام مع هذه الاسس وعداء معها ، الامر الذي كان يقودهم الى توظيف هذا التراث لتأكيد استنتاجهم باعتماد منهج منقوص لا يستقرئ هذا التراث لاستخلاص مؤشراته الاساسية في هذه الدائرة او تلك من دوائر معطياته المعرفية الخصبة المتشابكة ، ولكنه يمارس عملية انتقاء كيفي فجة تستبعد – بحكم التحزب والهوى – الكثير من عناصره الاصلية ، ولا تستبقي سوى الشواهد التي تؤكد هذا الاستنتاج المحدود او ذاك.

ولا ريب ان الاهتمام الجاد الذي ستوليه انشطة اسلمة المعرفة لدائرة التراث ، والمنهج الدقيق الذي ستعتمده ، والتصور المخلص الذي ستنطلق منه في فهم وتحليل وتمحيص مفردات هذا التراث ، فيما يجعلها اكثر قدرة على استبطان جوهر معطياته وملامسة حقيقتها.

ان هذا كله سيبرر الجهود الكبيرة المضنية التي ستأخذ المحاولة نفسها بها .. لأنه سيقدم ثماره التي نضجت على مهل ، وفي بيئتها الطبيعية ، ليس لمشروع اسلمة المعرفة فقط ،

ولكن لكل المعنيين بالتراث اكاديميا وعقيديا ، وسيقطع الطريق على كافة المحاولات المبتسرة ، الناقصة ، المرسومة سلفا ، تلك التي تسعى الى توظيف المعطيات السخية لهذا التراث ، بالحق وبالباطل ، لتأكيد قناعاتها المتقاطعة اساسا مع بداهات التصور الاسلامي.

المعطيات الاسلامية الحديثة والمعاصرة

تمثل المعطيات الاسلامية الحديثة والمعاصرة – في مجال البحث والتأليف – كما ضخما يطوي جناحيه على حشود قيمة من المعارف التي تم التعامل معها – بدرجة او اخرى– وفق التصور والمنهج الاسلاميين.

وتكاد هذه المعطيات – لحسن الحظ – تغطى معظم الجوانب المعرفية ، او بعبارة ادق، جل الفروع العلمية في دوائرها المشار اليها في القسم الثاني وهي بذلك تحقق نوعا من التكامل في المعالجة ، وتضع بين يدي المعنيين ، قدرا طيبا من المفردات والنتائج التي يمكن ان ترفد عملية اسلمة المعرفة في اطارها العام والمنظم. وان كنا نستطيع ان نطرح تحفظا ما بصدد وجود نوع من التوازن في المعالجة بين هذا الفرع او ذاك ، بحيث اننا نجد ، مثلا ، قدرا طيبا من الدراسات والبحوث في حقل الاقتصاد والتاريخ الاسلامي ، وبخاصة في العقود الثلاثة الاخيرة. كما اننا نجد – مثلا – قدرا متوازيا من المحاولات الجادة في مجال الادب الاسلامي دراسة ونقدا وتنظيرا ، وخاصة في العقد الاخير. وما يقال عن هذين الفرعين يمكن ان يقال عن علوم القرآن والحديث ولكننا في مقابل هذا لا نكاد نجد ما يسد الحاجة او يملأ الفراغ في فروع اخرى مثل علم النفس او الاجتماع او علوم السياسة او الادارة فضلا عن فلسفة العلم ومعظم فروع العلم ، الصرف والتطبيقي.

ثمة ملاحظة اخرى في هذا المجال : فاذا كانت هذه المعطيات الاسلامية الحديثة والمعاصرة ، تمثل بشكل او بآخر امتدادا للتراث المعرفي الاسلامي وتحركا بمعطياته صوب العصر الحديث. الا انها – وان اختلفت في الكم عن هذا التراث ربما بسبب ضيق الفترة الزمنية التي تشكلت فيها بينما اتيح للتراث المعرفي ان يتشكل في مدى عشرة قرون أو تزيد – لكن المهم ان المعطيات الحديثة والمعاصرة هذه تمثل ولا ريب مقاربة اكثر للمنظور الاسلامي ، والتزاما ادق بمطالبه المنهجية والموضوعية .. ربما بسبب من تراكم الخبرة والاستجابة لتحديات مذهبيات التشريق والتغريب .. والوعي التصوري الذي صاغته ونمته الحركات الاسلامية الحديثة والمعاصرة .. والقدرات المضافة التي منحتها ايضا مناهج البحث الحديث ، جنبا الى جنب مع العلوم المساعدة او الموصلة التي تعين على مزيد من الكشف والنضج خلال البحث والدراسة والتأليف في هذا الفرع او ذاك.

فاذا وجدنا مثلا – في نطاق التراث المعرفي مساحات واسعة في نسيجه تند بشكل او بآخر ، ولأسباب شتى ، عن نبض الرؤية الاسلامية ومفرداتها ومطالبها المنهجية .. فاننا هنا قد

نجد صفاء أكثر في الرؤية ، والتزاما اشد بالمفردات والمنهج ، واستقلالا اكثر وضوحا في التصور المذهبي خلال التعامل مع الظواهر والحقائق والاشياء.

صحيح ان كما كبيرا كهذا قد يتضمن دخلا كبيرا ، وقد ينطوي على تناقضات وتوجهات مضادة – ربما – لبداهات اسلامية بسبب الجهل والقناعة الخاطئة ... وصحيح ايضا ان هذا الكم قد لا يتضمن الجيد ، العميق ، المقنع دائما .. بل ان فيه مقابل هذا مساحات ليست بالهينة لم يعرف اصحابها اوليات المنهج ، ولم يمتلكوا – ابتداءً – قدرة فكرية تحليلية او تركيبية مما تقتضيه هذه الاوليات .. كما انهم لم يتوغلوا بما فيه الكفاية في ضرورات التخصصات العلمية التي درسوا او كتبوا فيها ، الامر الذي جنح بالعديد منهم صوب " الانشائية " التي لا تتضمن قدرا طيبا من التصاميم الفكرية الرصينة التي تخدم التصور الذي انطلقوا منه في تعاملهم مع الموضوع ، وترفد – بالتالي – محاولة صعبة كأسلمة المعرفة التي نحن بصددها.

صحيح ان سلبيات كهذه وغيرها كثير ، تتناوش مساحات ليست هينة في نسيج هذه المعطيات ، الا ان الاطار العام لهذه المعطيات ، والنيات المخلصة التي تكمن وراءها ، وتشبث اصحابها بالتحقق بحضور اسلامي في جل ما تناولوه وعالجوه ، فضلا عن تألق العديد من الاعمال التي برزت في هذه المعطيات ، ليس على مستوى دائرة الاسلام فحسب ، بل في مدى العالم كله، بحيث انها فرضت ثقلها ، وحضورها على هذا المستوى العام.

ان هذا كله يمنح العاملين في سياق اسلمة المعرفة ، ثروة جيدة من الانشطة المعرفية التي يمكن توظيفها في هذه المهمة الصعبة ، والافادة منها الى حد كبير. بل ان بعض اعمال هذه المعطيات تكاد تكون جاهزة تماماً دونما حاجة الى اقل قدر من التبديل او التحوير او التمحيص لكي توضع في مكانها المناسب من معمار الاسلمة كعمل مستكمل الاسباب الموضوعية والمنهجية .. وبهذا تكون قد وفرت على العاملين جهدا ووقتا كبيرين.

وهنا ايضا يتحتم على مهندسي حركة اسلمة المعرفة الا يتوهموا امكان البدء من نقطة الصفر فكما كان ضروريا الرجوع الى التراث المعرفي الاسلامي والاستمداد منه ، بعد سلسلة التصفيات التي المحنا اليها قبل قليل ، فانه من الضروري – كذلك – احتضان المعطيات الاسلامية الحديثة والمعاصرة ، والتعامل معها بالجدية المطلوبة التي قد ترفد الاسلمة بالكثير من الاعمال القيمة التي يمكن ان تكون لبنات جاهزة للارتفاع بالمعمار المتشعب الذي يتطلب قدرا هائلا من الخبرات والانجازات الفكرية والتأليفية . ولكن ليس قبل ان تتعرض هذه المعطيات لدراسة هادئة متخصصة لتمييز الاصيل من الدخيل ، والجيد من الرديء او الاقل جودة .. وليس قبل فرزها الى مجموعات متخصصة وفق توجهاتها العلمية وعرض كل مجموعة منها على خبراء اسلاميين متخصصين في هذا الفرع او ذاك لكي يخبروها جيدا ويقولوا فيها كلمتهم الاخيرة.

ان اعمال مفكرين كالندوي – مثلا – في الهند واقبال والمودودي في باكستان والسباعي في سوريا والجسر في لبنان وابن نبي في الجزائر وسيد ومحمد قطب ومحمد البهي والغزالي والقرضاوي في مصر والنورسي في تركيا وتقي الدين في الاردن ومحمد اسد (ليوبولدفايس) النمساوي الاصل وروجيه جارودي في فرنسا .. وغيرهم عشرات بل مئات لا يحصيهم العد في نطاق الاسلام كله وعلى مدى قرن ونصف من الزمن[٢] .. هذه الاعمال لا يمكن الا ان تكون فرصة طيبة لتقديم المادة المناسبة لإقامة البناء ، وتوفير الكثير من الجهد والوقت والتسريع – بالتالي – بالمهمة الصعبة ، شرط ان يكون التعامل انتقائيا منضبطا بمعايير مسبقة ، مرسومة بعناية فائقة لكي يكون النسيج متوحدا ولكي يقوم الصرح المعماري للعمل بمواد متجانسة لا نشاز فيها ويعرض على الناس تصميما تتناظر في مساحاته وتكويناته كافة المفردات.

---

(٢) يمكن بالنسبة للمعنيين بالاسلمة ، ومن اجل السيطرة على تيار هذه المعطيات ان يبدأوا – اولا – بإحصاء وفهرسة كل ما قدمته من بحوث ودراسات وفق تخصصاتها العلمية بطبيعة الحال ، وتواريخ صدورها وقد تعينهم على مهمة صعبة كهذه المحاولات الببليوجغرافية التي قام بها بعض الباحثين الاسلاميين لحصر المعطيات في هذا الجانب او ذاك من جوانب المعرفة وبخاصة تلك المحاولات التي نفذتها مجلة " المسلم المعاصر " في بعض اعدادها بصدد الاقتصاد الاسلامي مثلا ، ورابطة الادب الاسلامي بصدد الانشطة الادبية التنظيرية والدراسية والنقدية والابداعية ...

المحاولات المنظمة

في تحركنا من العام الى الخاص .. سنجد انفسنا قبالة المحاولات المحددة الخاصة بمهمة أسلمة المعرفة ، والتي اخذت على عاتقها منذ اللحظة الاولى مسئولية العمل على تنفيذ المهمة وفق هذه الصيغة او تلك.

فاذا كنا في الصفحات السابقة قد الممنا بالخطوط العريضة للمصطلح وضروراته الاساسية ، وانتقلنا للحديث عن الحلقات الاساسية للمعرفة وعلاقتها بالإسلامية ، ثم بدأنا بطرح القاعدة التصورية العريضة للمسألة من خلال متابعة الارتباطات بين القرآن الكريم وبين العلم الحديث .. تلاه مقطع آخر كانت مهمته التعرض للمسائل الاساسية الخاصة بواقع النشاط المعرفي للمسلمين عبر التاريخ ، وصولا في المقطع الذي اعقبه الى معطيات الاسلاميين الحديثة والمعاصرة.

فاننا هنا سنحدد الدائرة بعملية الاسلمة نفسها للتأشير فقط على بعض المطالب وضروراتها العملية.

فمنذ بدء " الدعوة المنظمة " لهذه الخطوة الحيوية ، ربما في عقدي الستينيات والسبعينيات ووصولا الى قيام المعهد العالي للفكر الاسلامي – في بداية الثمانينيات – لكي يتولى كبر المهمة .. مرورا بالمحاولات التنفيذية المخلصة لعدد من الجامعات وبالنسبة لبعض الفروع والتخصصات .. شهدت الساحة انماطا من الانشطة الاعلامية والتنظيرية والعملية يمكن ان نلمها في السياقات التالية :

أولا : المؤلفات والنشريات.

ثانيا : المؤتمرات والندوات والمحاضرات.

ثالثا : المؤسسات.

وليس من مهمة هذا البحث ان يستقصي كافة الانشطة التي شهدتها السياقات آنفة الذكر ، ولكنه سيولي وجهه نحو نمط من المؤسسات يمكن ان يكون عصب المحاولة وأداتها الرئيسية في تحولها الى واقع منظور وذلك هو المؤسسات التعليمية عبر مراحلها الزمنية العديدة التي تبدأ بالمدرسة الابتدائية وتنتهي بمعاهد الدراسات العليا للماجستير والدكتوراه.

فالمؤسسة التعليمية هي الاداة التنفيذية الرئيسية ، في النظم التربوية العاصرة ، لتوصيل المعرفة ، وهي حلقة الوصل بين مفردات المعرفة في كافة توجهاتها وبين مبادئ وضرورات الواقع المعاش.

ومنذ اللحظة التي يتفتح فيها العقل البشري على الوعي ، في مرحلة الطفولة ، تتلقفه ، كما هو معروف ، المدرسة الابتدائية لكي ، " تعلمه " الحد الادنى الضروري من المعرفة، ولكي " تربيه " على تحويل اكبر قدر من المفردات الى دائرة الواقع والممارسة والسلوك.

وكلما مضى الطالب خطوات ابعد في نشاطه المدرسي سعت المؤسسات التعليمية الى ان تمنحه المزيد من المعرفة وان تجعله في الوقت نفسه يتوغل اكثر في نطاق كل فرع من فروعها. اي ان الامتداد الافقي في نطاق المعرفة الشاملة يوازيه ايغال عمودي باتجاه نوع من التخصص لفهم اسرار ومطالب هذا العلم او ذاك.

حتى اذا ما تجاوز الطالب المرحلة الثانوية ومضى الى المعهد او الكلية كان عليه ان يكون اكثر استعدادا للتوجه الثاني ، اي لمطالب التخصص.

وتجيء مرحلة الدراسات العليا لكي تتوج هذا السعي بتخصص دقيق في جانب ما من جوانب هذا الفرع او ذاك من فروع المعرفة.

وفي كل الأحوال فان المؤسسة التعليمية تظل الأداة الرئيسية للتوصيل والتغيير المعرفي، وتظل الرؤية او الفلسفة او التطور او المنهج الذي تعتمده هذه المؤسسة في تقديم مفرداتها المعرفية ، هو الحكم الفصل في تخريج طلبة ملاحدة ، او لا دينيين ، او انصاف مؤمنين ، او مؤمنين حقيقيين !

فما دامت القناة الاساسية للتلقي المعرفي هي المؤسسة التعليمية ، وما دامت هذه المؤسسة تهيمن على اشد المراحل حساسية في عملية التلقي ، وتغطي هذه المسافة الزمنية التي تبدأ فيما قبل السادسة من العمر ، وقد لا تنتهي الا فيما وراء الثلاثين او الاربعين .. فان الفلسفة او التصور الذي تصدر عنه هذه المؤسسة سيلعب دورا خطيرا ولاشك في التوجه الفكري والمذهبي والعقيدي لحشود الاجيال التي تسهر على التعامل معها معرفيا وتربويا.

من هنا كان لهذه المؤسسة اهميتها البالغة في تنفيذ اسلمة المعرفة ، اذا احسن توظيفها في سياقات المنهج والتصور الاسلاميين. ومن هنا – كذلك – قدرت المؤسسة نفسها على ان تقطع الطريق ، عبر القرن ونصف القرن الاخير ، على اية محاولة جادة للتحقق بالوفاق والالتئام المنشود بين المعرفة بفروعها كافة وبين مطالب وضرورات الاسلامية .

إن مفردات كتاب " القراءة " مثلا ، ذلك العلم الذي يتعلم فيه طلبة الصفوف الاولى الابتدائية كيف يرسمون الحرف وكيف ينطقون به ، اذا جردت تماما من كلمة " الله " فان حشودا من الاطفال ستتلقى منذ اللحظة الاولى اول ضربة مضادة ، لما يمكن ان يكون قد تعلمته في نطاق الاسرة ، او ربما المجتمع في دوائره الاكبر اتساعا ... وسيؤدي هذا ولا ريب الى شرخ غائر في سيكولوجية الطفل قد يصعب التئامه فيما بعد. وبالمقابل فان كلمة " الله " في كتاب اولى كهذا ستعمق الحس الايماني في وجدان الاطفال ، وسوف تقودهم صوب مزيد من التوحد

بين مكونات فطرتهم الاصيلة ، وما يتعلمونه في البيت والمجتمع ، وبين ما يتلقونه في المدرسة، وبين المفردات المعرفية التي يلقنونها هنا وهناك والواقع الذي يعيشونه بعقولهم وارواحهم ووجدانهم.

وما يقال عن كتاب اولى " كالقراءة " يمكن ان يقال عن كتاب اولى كذلك " كالأشياء " و " الصحة " و " التأريخ " و " الجغرافيا " ... الخ.

فمنذ البدايات تكون التربية والتعليم شيئا واحدا يصعب فصله ، ومن ثم ، فاننا لن نكون مبالغين اذا قلنا بان اسلمة المعرفة يتحتم ان تبدأ من هناك .. منذ السنوات المبكرة .. ولكن ماذا في المراحل التالية وبخاصة مراحل التخصص حيث تنفصل الى حد كبير التأثيرات التربوية عن عملية تلقي المعرفة كنشاط عقلاني صرف ؟

هنا أيضا ... في نهايات الشوط ... وعلى المستوى العقلي المحض ، تكون كلمة " الله " هي الحكم الفصل في تخريج او تكوين العالم الملحد ، او اللا ديني ، او نصف المؤمن ، او المؤمن ! وتصير كلمة " الله " سلاحا ذا حدين قد تقود – بنفيها من العملية المعرفية – الى حظيرة الكفر ، وقد تنتهي – بتأكيدها في العملية – الى ساحة الايمان.

وفي كل الاحوال .. في كل المراحل التي يتجاوزها الطالب متقلبا في اروقة المؤسسات التعليمية وقاعاتها ، يكون التصور النهائي الذي تمر المفردات المعرفية من خلاله هو الحكم الفصل لجل الذين يمرون هناك . ومن ثم لزم ، مرة اخرى ، التأكيد على الدور الذي تلعبه هذه المؤسسة في المهمة الصعبة التي نحن بصددها ، والتأكيد – كذلك – على ان أسلمة المناهج والمفردات التعليمية يجب الا يقتصر على مرحلة دون مرحلة ، رغم الاعتراف بان للحلقة الجامعية في العملية ، اهميتها البالغة لكونها تتولى في الاساس تخريج الكوادر المتخصصة التي تأخذ على عاتقها مهمة التواصل المعرفي مع الاجيال التالية سواء على نطاق المؤسسة التعليمية نفسها ، او سائر المؤسسات وعلى مدى الحياة الاجتماعية والثقافية كافة.

وكما المحنا فإن عملية الاسلمة في الدوائر الجامعية يتحتم ان تتحرك على محورين ، اولهما تنظيري يفسر أبعاد العملية المعرفية كافة.

وهذا المحور يمكن ان يتمثل بمؤلف واحد مقبول الحجم يعمم على طلبة الفروع المختلفة كافة : انسانية وعلمية صرفة وتطبيقية ويكون بمثابة مفتاح ، او تمهيد ، او مدخل للتحقق بالقناعة في ان عملية الاسلمة في اساسها مطلب ضروري على كافة المستويات المنهجية والمعرفية والعقيدية والانسانية. ولكي يكون هذا المدخل – كذلك – بمثابة اضاءة وبرمجة لطرائق العمل في كل فرع على حدة من اجل صياغته ، في دائرة الاسلامية.

ويستحسن ان يسبق هذا الكتاب (المدخل) الذي يخاطب الطالب الجامعي ، كتاب آخر أصغر منه حجما وأكثر تبسيطا يتوجه بالخطاب الى طلبة الدراسة الثانوية بما انها – في معظم

الاحيان – الطريق الى الجامعة ومن اجل ان يهيئ طلبة هذه المرحلة ذهنيا ونفسيا للتعامل مع المدخل (الجامعي) التالي ، من جهة ، ولتقبل عملية اسلمة المعرفة في الفروع التي سيلتحقون بها ويتخصصون فيها ، من جهة اخرى.

ويستحسن – كذلك – ألا يعهد بالمدخل الاولي (للثانويات) ، والمدخل الاساسي (للجامعات) الى مؤلف واحد ولكن الى مجموعة مؤلفين ذوي خبرات متنوعة وتخصصات عديدة تغطي قدر الامكان سائر الحلقات العلمية من اجل ان يصاغ الكتاب بأشد الطرائق دقة وشمولا وقدرة على الفاعلية والتوصيل ، ولابأس من ان يعهد بكل فصل من فصوله الى مؤلف واحد ، شرط ان يتم مسبقا اتفاق بين مؤلفي الفصول كافة على قواعد العمل ومطالبه وضروراته التكاملية من اجل ان يجيء متوحدا في منهجه ، متناسقا في فصوله ومادته كافة. ولا بأس – كذلك – من ان يعهد بتأليف هذا الكتاب الى عدد من المؤلفين كل يتولى كتابته كاملا ، ثم تعرض هذه المؤلفات المتناظرة للفحص والاختبار كي يتم اختيار اكثرها قدرة على تلبية مطالب الموضوع ، او ينتقي الفصل الاكثر دقة واستيعابا لهذه المطالب.

وفي كل الاحوال فان (مدخلا) كهذا يعالج كافة المسائل التي تحدث عنها البحث الذي بين ايدينا بإيجاز بدءا من مسألة المصطلح والضرورات ، مرورا بالعرض التاريخي لمراحل الاتصال والوفاق ، او التضارب والانفصال ، بين المعرفة الاسلامية ، وبتحديد الحلقات الاساسية للمعرفة وعلاقتها بالإسلامية ، وبطبيعة الارتباط بين القرآن الكريم والعلم الحديث فلسفة ومنهجا وحقائق وتطبيقات ، وبتحليل نسيج المعطيات الاسلامية التراثية والمعاصرة لوضع اليد على المساحات التي يمكن ان تخدم عملية الاسلمة ، ووصولا الى المحاولات المنظمة التي شهدتها العقود الاخيرة والتي كان للمؤسسة التعليمية – وسيكون – شأن كبير فيها.

فما هي اذن المواصفات الضرورية لكتاب كهذا من اجل ان يكون قديرا على اداء مهمته المتوخاة بفعالية عالية ؟

يبدو ان اولى هذه المواصفات او الشروط هي القدرة على التوصيل ، فان النشاط الجامعي ، والتعليمي عموما ، هو عملية توصيل المعرفة بالدرجة الاولى ، فاذا قدرنا على توصيل مفردات كتاب كهذا الى اذهان الطلبة بأكبر قدر ممكن من الوضوح ، والمنهجية ، والاستنادات العلمية والموضوعية نكون قد قطعنا شوطا في الطريق الطويل.

ولا ريب في ان التسلسل المنطقي المقنع لفصول كتاب كهذا ومقاطعه وفقراته وبلورة المعطيات في سياقات محددة بقدر كاف من الايجاز ، ودونما ارهاق الطالب بتركيم حشود كبيرة من الجزئيات ، سيعين على تحقيق مهمة التوصيل. كما ان عقد قدر كاف من المقارنات ، وضرب عدد مناسب من الامثلة التاريخية والحيوية والواقعية ، سيساعد من خلال ما يسمى بالاقتران الشرطي ، على ترسيخ الافكار في عقول الطلاب.

ولكن التوصيل وحده لا يكفي ، ولابد – ايضا – من التأثير. ان يملك كتاب منهجي كهذا القدرة على التأثير العقلي والوجداني في الطالب ، على جعله يتفاعل مع مطالب الاسلمة ، وينفعل بها او يتأثر بمعطياتها ليس فقط من اجل تعزيز قناعاته بالمشروع ، ولكن جعله يتحرك لكي يتبناه ، ويبشر به ، وربما تعينه الظروف وقد بلغ مرحلة كهذه ، في المعاونة ، بشكل او بآخر ، على تنفيذ هذا الجانب او ذاك من المشروع ، سيما اذا اتيح له ان يواصل دراسته العليا صوب التخصص في هذا الفرع او ذاك من فروع المعرفة.

ولا ريب ان الخاصيتين آنفتي الذكر تقتضيان وقفة قصيرة عند مسألة " اللغة " .. لغة العرض.

ان هذه اللغة يجب ان تتحاشى الوقوع في مظنتي الاختزال العلمي الذي يقود الى الجفاء والملل والاعياء الذهني ، ويؤثر بالتالي على قدرات التوصيل والتأثير .. وكذلك الاسهاب الانشائي الذي يمارس تبذيرا في اللغة واسرافا في التعبير على حساب الحقائق العلمية وضرورة توصيلها على الخط المستقيم الذي هو اقرب المسافات بين المعطي والمتلقي .. الامر الذي يؤثر – كذلك – على قدرات التوصيل.

ان العرض الجاف الذي يجافي جماليات اللغة (الضرورية) في اقل تقدير ، هو كالطرح الانشائي الفضفاض الذي تكاد تضيع في ثناياه التصاميم الذهنية التي هي الهدف الاساسي لعمل كهذا. ولابد اذن من صيغة وسط تتضمن اكبر قدر ممكن من التصاميم الذهنية، معروضة بأسلوب جميل واضح ، سلس ، يعين مدرس المادة على توصيل الموضوع الى عقول الطلبة ووجدانهم ، وعلى التأثير فيهم في الوقت ذاته.

اما المحور الثاني الذي ستتحرك عليه الاسلمة فهو محور تنفيذي يستهدف التعامل مع كل فرع من فروع المعرفة على حدة ، لصياغته ، او اعادة صياغته وفق مطالب الاسلامية وشروطها .. وهذا بطبيعة الحال وقياسا على المحور الاول ، يقتضي زمنا متطاولا وجهودا صعبة قاسية ونشاطا متواصلا دؤوبا .. كما يقتضي حشوداً كبيرة من العاملين المتخصصين كل في حقله ، لتغطية كافة الحلقات العلمية ، والذين يتحتم ان تتوفر فيهم ، فضلا عن شروط التخصص ، خلفية ثقافية واسعة ، ورؤية اسلامية دقيقة ، وايمانا عميقا بضرورة عمل كهذا ، وقدرة على تحقيق الوئام والانسجام بين مفردات تخصصهم وبين " الاسلامية ".

في البدء لابد من رسم الخطوط العريضة للتصور الاساسي لأسلمة كل فرع من فروع المعرفة (مثلا : خطوط عريضة لمنهج مقترح لأسلمة الاقتصاد ، او الادارة ، او التاريخ ، او الادب .. الخ) يسهم في صياغتها استاذ او اكثر ممن تتوفر فيهم الشروط التي المحنا اليها قبل لحظات.

وستؤدي هذه الخطط المنهجية الاساسية في خطوطها العريضة دورا مزدوجا وعلى مرحلتين زمنيتين. فمن جهة يمكن تقديم كل خطة للتدريسيين المعنيين لكي يسترشدوا بها في تدريسهم للمادة ، ويمكن– كذلك – ان توزع على الطلبة انفسهم فيما يمكن اعتباره دليل عمل في التعامل مع مفردات تخصصهم من منظور اسلامي.

وخطوة كهذه تعد ولا ريب كسبا طيبا للوقت ، اذ يمكن تنفيذها بمجرد استكمال الخطوط العريضة لمنهج كل فرع من فروع المعرفة ، وقد لا يقتضي هذا وقتا طويلا.

وأما الدور التالي الذي يمكن ان تؤديه خطط (مرحلية) كهذه فهي انها ستكون بمثابة نقاط انطلاق وبرامج عمل ، فيما تتضمنه من معايير وضوابط ومؤشرات اساسية ، لتنفيذ عملية الاسلمة على مفردات كل فرع من فروع المعرفة في نسيجها كافة .. وهذا ولا ريب قد يقتضي وقتا طويلا وخبرات متكاملة وشروطا اخرى المحنا اليها من قبل.

وهنا ايضا ، بل في هذا النشاط الصعب بالذات ، فان انجاز أسلمة اي فرع من فروع المعرفة في ابعاده ومفرداته كافة ، لن يتأتى عن طريق هذا التخصص او ذاك ، وبجهود فرعية مبعثرة .. فالمهمة صعبة ، وهي تتطلب جهداً جماعيا منظما يقتضي اول ما يقتضي ان ينهض بالمهمة في كل فرع من الفروع لجنة عمل من المتخصصين الذين يغطون كافة جوانب الموضوع من خلال تكامل ما يدعى بالتخصصات الدقيقة ، وعلى ضوء اتفاق مسبق بينهم جميعا على منهج العمل ، وخرائطه ، وتصوراته الاساسية ، فيما يمكن ان تعينهم عليه الخطط المرحلية المشار اليها.

ونشير هنا – عرضا – الى ما يمكن ان تسديه مراحل الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراه) من دعم للمحاولة عن طريق منح الاولوية لكتابة اطروحات متخصصة في دائرة الاسلامية على مستوى التنظير ام التنفيذ في هذا الفرع او ذاك ووفق تخصص الدارسين انفسهم.

اننا في عصر انفجار التخصصات – اذا صح التعبير – وان معاهد الاسلام وجامعاته اخذت تخرج سنة بعد اخرى حشودا كبرى من حملة الشهادات العليا ، وبنسبة يمكن ان تكون بصيغة متوالية هندسية بعد ان كانت قبل عقود قليلة تزحف ببطء وبصيغة متوالية حسابية لا تكاد تضيف شيئا ذا بال على مستوى الكم والنوع معا .. وان توجيه بعض قنوات انفجار كهذا باتجاه " الاسلمة " قد يغذي المحاولة ويغني الاعمال المنهجية المعتمدة في هذا المجال.

خاتمة

ان الطريق لا شك طويل .. والجهود التي يتطلبها تكاد تبدو للوهلة الاولى من قبيل المستحيلات ، ولكن القيمة الكبرى للمحاولة تستحق العناء ، فضلا عن ان الايمان المدعم بالخبرة كفيل بالاستجابة للتحديات والتفوق عليها .. ورحلة الالف ميل تبدأ – كما يقول المثل المعروف – بخطوة واحدة.

ولقد بدأت هذه الخطوة منذ زمن بعيد ، يوم بدأ الكتاب والباحثون الاسلاميون يكتبون ويؤلفون في شتى فروع المعرفة من منظور اسلامي مرن يعرف كيف يتعامل مع الجزئيات في كل واحد من هذه الفروع ، لكي يعيد صياغتها بما يحقق الوئام والانسجام بينها وبين مطالب الايمان الشامل الوضيء.

ثم اعقبت ذلك خطوات اخرى اكثر برمجة وأدق تنظيما ، وآلت الى قدر طيب من التوفيق . وجاء قيام " المعهد العالمي للفكر الاسلامي " لكي يكون مرتكزا اساسيا للمهمة .. يخطط للمحاولة ويبرمج لها ، ثم ينفخ فيها روح السعي الدؤوب للاقتراب من الاهداف النائية التي اصبح بعضها في مدى البصر ، ونحن ننظر فنرى عدداً من المعاهد والجامعات يتجاوب مع المهمة ويتقبل مطالبها وشروطها برحابة صدر .. ومعاهد وجامعات اخرى تمد يديها تطلب الاعانة على خوض التجربة على هدى من الامر وبينة ، وننظر كذلك فنرى وعيا متزايدا بخطورة المهمة ، وضرورتها ، تتداح دوائره لكي تغطي مساحات ليست بالهينة في دوائر الاكاديمية والثقافة والاعلام.

إن عصور " الفصام النكد " بين العلم والايمان آن لها ان تغدو من عصور التاريخ التي احتواها الماضي ففكت ارتباطها بالحاضر وتشبثها بالمستقبل .. عصور تجزئة الوعي البشري ، وتشتت الانسان ، وتبعثر العالم .. زمن الجدران الكالحة التي فصلت بين الثنائيات بما لم ينزل الله بها من سلطان.

لقد آن للوئام ان يعود بين السماء والارض .. بين الانسان والعالم .. بين العقل والروح .. بين الجزئي والكامل .. بين الزائل والابدي .. وبين الارض الضيقة والكون الكبير .. وان يرجع الانسان – ثانية – الى بارئه الذي انشأه اول مرة ، ودفعه الى العالم واستعمره فيه ، لكي تكون كل جزئية من جزيئات سعيه في الارض ، وعمل من اعماله فيها منذورا لله.

وإن اسلمة المعرفة لهي نشاط جاد ، من بين انشطة اخرى ، للتحقق بهذا كله ..

وما هي الا ملاحظات موجزة حول مسألة تفرض حضورها وثقلها يوما بعد يوم .. ملاحظات قد تتضمن تكرارا لما قاله اخرون .. وقد تحتوي اضافات جديدة متواضعة.

والامر جد يحتم علينا ان ننفر لكي نقول فيه كلمة ، او نسطر في سفره حرفا.

فالجزاء – كما هو واضح بين – كبير عزيز – .. ولابد ان يكون الثمن بالمستوى نفسه، كبيرا عزيزا ..

ومن الله التوفيق .. وهو حسبنا ...